

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



A 11

سلسلة

الفكر العربي



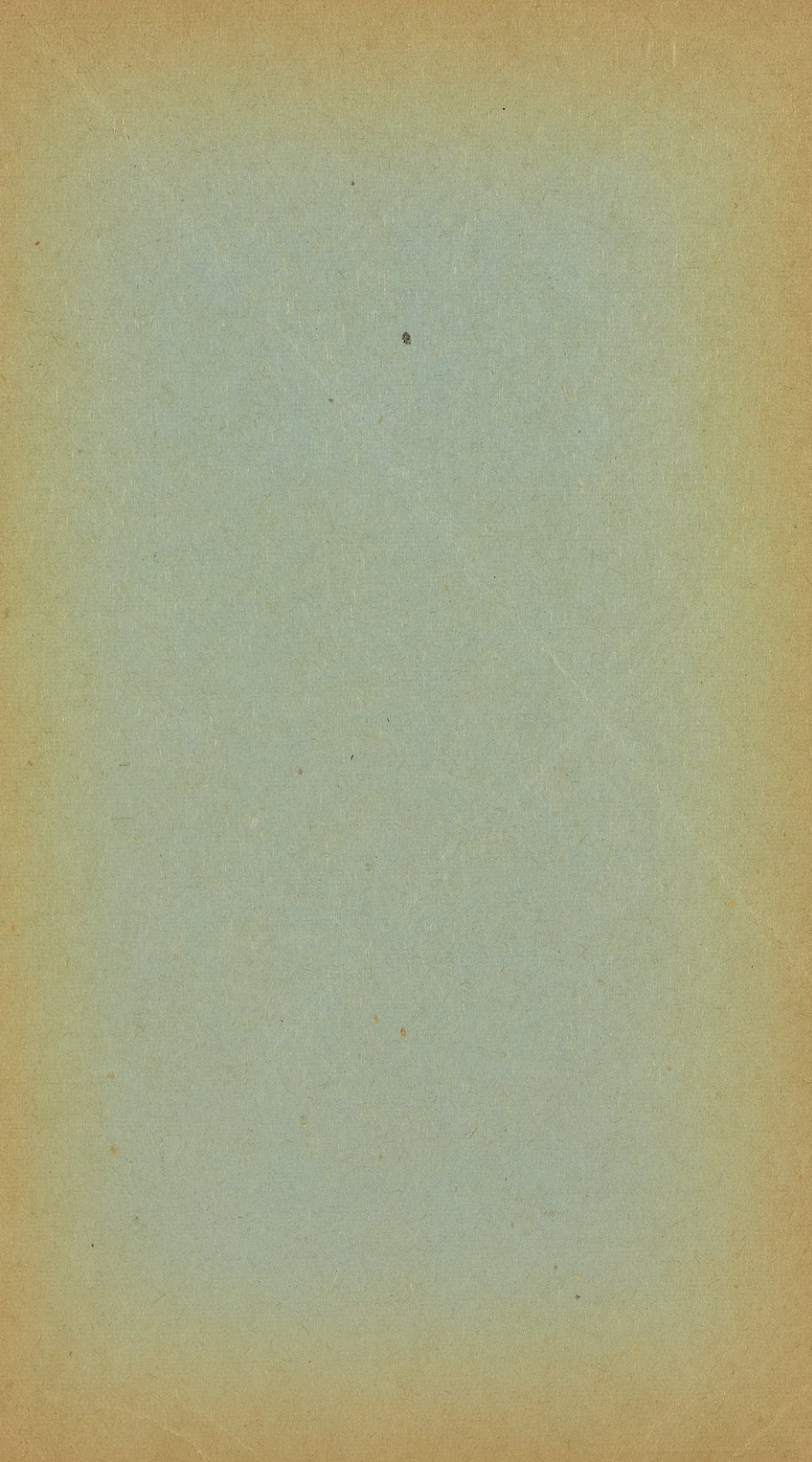
٦

مقالات مختارة

من أدب الانجليز

تعريب

محمد بدري



سلسلة الفكر الحديث

مقالات مختارة

من الأدب الانجليزي

تأليف

محمد نوري

893784

B 14

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

المقالة نوع من الكتابة الأدبية نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها . وهي من الكتابات القابلة للنماء والتطور على يد الكاتب الواحد في أثناء حياته وعلى يد الكتاب في العصور المختلفة . وفكرة المقالة في العصر الحاضر تختلف كثيراً عن فكرتها في بداية عهدها .

وقد حاول بعض كتاب المقالات في العصور المختلفة أن يعرفوا المقالة . وأكبر الظن أن مدلولها لم يكن واضحاً محدداً في أذهانهم قبل أن يكتبوا مقالاتهم ، وأنهم عرفوها بحيث ينطبق التعريف على ما كتبوا . وأول من أطلق هذا الاسم على كتاباته الثرية من الكتاب الإنجليز هو فرنسيس بيكن ، وقد وصف مقالاته بأنها « مذكرات موجزة يعنى فيها بمعانيها لا بأسلوبها » . ويقول في الكلمة التي صدر بها الطبعة الأولى من هذه المقالات إنها « أفكار متقطعة » . وليست مقالات بيكن في حقيقة الأمر إلا مجموعة من الحكم والأمثال استمدتها من تجاربه الطويلة عن الناس وعن الأشياء . وكان بيكن نفسه يعدها مجرد هياكل من المعاني يملأ القارى فراغها حسب تفكيره الخاص ؛ وكثير من أمثاله وحكمه صالح لأن يكون موضوع مقال مستقل ؛ وقد لا توجد بين عباراته رابطة قط ، ومع ذلك فإن من جاء بعده من الكتاب وجدوا فيها ثروة لا تنفذ من الموضوعات ومن الأمثال ، كان لها أعظم الأثر في كتاباتهم .

ولكن الفضل في تطور المقالة الإنجليزية بعد عصر بيكن يعود إلى الكاتب الفرنسي الشهير منتاني Montaigne الذي كان معاصراً لبيكن والذي نشرت مقالاته في عام ١٥٨٠ قبل أن تنشر مقالات بيكن نفسه بسبعة عشر عاماً ؛ وقد حاول هو الآخر تعريف المقالة حين قال في مقدمة كتابه :

« لم أكتب هذا الكتاب لأجني منه نفعاً أو أنال به مجداً ؛ ذلك أن مواهبي أقل من أن تسمو بي إلى هذه الغاية ، وأن من أصدقائي وأقاربي من هم أقدر على بلوغها مني . أما أنا فقد حاولت أن أترك لهم صورة من نفسي ، خالية من الصناعة والزينة ، يرون فيها عيوبى ونقائصى ، لا أخفى منها إلا ما لا تسمح به التقاليد والآداب السائدة في هذا العصر . ولو أننى أسعدنى الحظ فعشت بين الأمم التى لا تزال تعيش على فطرتها ، لم يفسدها العرف أو القانون الوضعى ، لعرضت على القارى صورة كاملة سافرة من نفسى . ومع ذلك فإنك أيها القارى الكريم واجد شخصيتى أساس كتابى هذا ؛ ومن أجل ذلك لا أشير عليك أن تصرف وقتك في هذا الموضوع التافه الذى لا نفع فيه » .

وإذاً فقد كان منتاني يفهم من المقالة ما يفهمه منها أდسن واستيل ولام وغيرهم من الكتاب الإنجليز في القرن الثامن عشر ، وهو أن المهم في المقالة ليس موضوعها بل شخصية كاتبها وقدرته على أن يشعر الناس بهذه الشخصية ، وأن الرابطة التى تؤلف بين أجزائها هى مزاج الكاتب العقلى وقت كتابة المقالة ؛ فهى تنمو حوله كما تنمو الشرنقة حول دودة القز ، حتى إذا ما انتهى القارى من قراءتها وجد شخصية كاتبها هى المحور الذى تدور

عليه ، سواء كانت هذه الشخصية ظاهرة أو مستترة . ويصدق هذا على أدسن واستيل ولام وهازلت وجولد سمث كما يصدق على كثيرين من كتاب هذا الجيل أمثال هـنسـن وجولزوردي .

ووصف صمويل جنسن Samuel Johnson المقالة بأنها « وثبة من وثبات العقل أو قطعة أدبية مفككة غير منتظمة ولا مهضومة » . وهذا الوصف إن صدق على بعض مقالات جنسن لا يصدق مطلقاً على ماسبقها من المقالات ، كمقالات بيكن ومقالات أدسن واستيل ، ولا على ما جاء بعدها كمقالات كبار الكتاب في القرن الثامن عشر أمثال لام وهازلت ، والتاسع عشر أمثال مكولي . فأما مقالات بيكن فقد تكون وثبات من وثبات العقل غير متماسكة ، ولكنها مع ذلك وثبات يشع منها الذكاء ويسرى فيها كلها التفكير العميق ، وكل عبارة منها تمثل فكرة خالدة هي نتيجة لتجارب عهد طويل . وأما مقالات من جاء بعد جنسن من الكتاب ، ومقالات الأدباء المحدثين ، فهي أبعد ما تكون عن الآراء الفجة المفككة غير المنتظمة وغير المهضومة . وحسبك أن تقرأ مقالات مكولي التاريخية والانتقادية لترى الدرس العميق ، والتسلسل المنطقي ، والارتباط المتين يسرى في كل مقالة منها من بدايتها إلى نهايتها .

وأما الكتاب المتأخرون فقد توسعوا في معنى المقالة فعرّفوها بأنها بحث قصير في موضوع أدبي أو انتقادي أو فلسفي أو أخلاقي أو اجتماعي ؛ فهي عندهم تشمل الرسائل والأبحاث القصيرة في الموضوعات الأدبية والانتقادية ، والعلمية أحياناً ؛ وحتى شرط القصر لم يتمسكوا به ، فلم يروا

ما يمنع من تسمية كتابات لك Locke وبيرك Burke الفلسفية ، وكتابات
مكولى التاريخية والانتقادية مقالات^(١) .

ومهما اختلف الأدباء فى تعريف المقالة ، وسواء كانت موجزة أو مسهبية ،
محكمة أو مهلهلة ، جادة أو هازلة ، تدور حول شخص الكاتب أو حول
موضوعه ، فإنها تشتمل على فكرة واضحة متبلورة ، وقد اختارها كاتبها
موضوعاً واحداً وعبر عن أفكاره فيه بأسلوب يرى أنه هو الأسلوب
الذى يسر القارىء ويحبب إليه القراءة . وسواء كان هذا الأسلوب محكماً
مركزاً ، أو مفككاً ثنائياً ، فإن القارىء يجد نفسه دائماً يحوم حول الفكرة
الرئيسية فى المقالة ، وهى فى العادة أقرب إلى المسارعة بين الأصدقاء منها إلى
الكتابة العلنية العامة لجمهور الناس . فأنت حين تقرأ المقالة تشعر أنك
تعرف القارىء معرفة الصديق ، وأنت شريك له فى آرائه عن الأشياء التى
تلذه ، وتحس أنه يريد أن يدخل السرور عليك ويطرد السامة والملل عنك .
وقد شمل موضوع المقالات الأدبية كل شيء « من الذرة الحغيرة إلى
الشمس الكبيرة ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن كوخ الفلاح إلى قصر
الملك ، ومن الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل ، ومن أقبح قبيح إلى أجمل
جميل ، ومن الحياة إلى الموت ، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة »^(٢) ،
ومن يد المكينة والسخف ولا شيء إلى المجد الزائل وسمو المقصد ، ومن

(١) أمثال Essay Concerning Human Understanding لك .

لبرك Essay on the Sublime and Beautiful

مكولى Critical and Historical Essays

(٢) من مقال للأستاذ أحمد أمين بك .

الحقيقة الواقعة إلى الخيال . وبالجملة فإن كتاب المقالات لم يروا شيئاً أحقر ولا أعظم من أن يتناولوه بأقلامهم ويعرضوا على القراء أفكارهم فيه .

ولعل الرسائل الأدبية كرسائل ابن المقفع هي أقرب الكتابات الأدبية إلى المقالات . ولو أنها تطورت على مر الزمن كما تطورت المقالة الإنجليزية فأتسع نطاقها وخلصت من التكلف ومن المحسنات اللفظية ، لكان لها في الأدب العربي ما للمقالة في الأدب الإنجليزي من أثر بليغ .

والمقالة في اللغة الإنجليزية أحب أنواع الكتابة الأدبية إلى جمهرة القراء وأكثرها انتشاراً بينهم . ذلك أن القراء ذوي الثقافة المتوسطة يسرهم تنوع موضوعاتها ، وقلة عمقها ، وما يتخلل الكثير منها من فكاهة حلوة ، فهي بذلك تختلف عن الرسالة التي توافق الرجل الدارس الذي لا يقنع بالكتابة السطحية الموجزة .

وإذا قلت إن بيكن ومنتاني هما أول من أطلق هذا اللفظ في اللغات الأوربية على هذا النوع من الكتابة ، فليس معنى هذا أنهما خلقا المقالة من لا شيء ؛ ذلك أن من الكتاب قبل بيكن وقبل منتاني من نستطيع أن نختار لهم بعض ما كتبوا ونُسميه مقالات . ولكن هؤلاء الكتاب في حقيقة أمرهم أشبه برجل مُليير الذي ظل يتكلم النثر طول حياته وهو لا يعرف أنه يتكلم نثراً . فقد كتبوا قطعاً أو أجزاء من مقالات من غير أن يدركوا ما يفعلون ، وليس في وسع الناشرين أن ينزعوا هذه القطع مما حولها ويثبتوها في كتبهم على أنها مقالات ، بل هي ومضات خاطفة تنبئ بالغيث المقبل وليست هي الغيث نفسه .

وتطورت المقالة في تاريخها الطويل من أيام بيكن ومنتاني ، أو من قبلها ، إلى العصر الحاضر ، شأنها في ذلك شأن كل كائن حي ينمو ويتطور ويختلف عن مثله الأول وإن لم يقطع صلته به .

وتاريخ المقالة الإنجليزية منذ القرن السابع عشر شديد الصلة بالنوادى والمقاهى Coffee Houses التى كانت كثيرة الانتشار فى ذلك الوقت . وفى وسع القارى أن يجد جو المقاهى والنوادى سارياً فى جميع أدب ذلك العصر . وسبب ذلك أنها كانت مجمع الأدياء ، وأن زعماء الأدب المسيطرين عليه كانوا هم الذين يوجهون الذوق الأدبى ، وأن المنزل فى ذلك الوقت لم يكن محور الحياة الاجتماعية بل كان محورها المقهى والنادى . ولذلك كان هو الموحى بكثير من موضوعات المقالة الأدبية . ترى ذلك واضحاً أتم وضوح فى مقالات أدسن واستيل وصمويل چنسن وجولد سميث .

وفى وسع من يتتبع تاريخ المقالة أن يقسمه إلى العصور الآتية :
(١) العصر الأول . ويشمل نشأتها فى أواخر القرن السادس عشر على يدى بيكن ، إذا صح أن نسمى « مذكرات بيكن المختصرة التى عني فيها بمعناها لا بأسلوبها » مقالات ، فهى كما قلنا أشبه بمجموعات من الأمثال والحكم ينقصها الارتباط والانسجام ، ويصدق هذا أيضاً على حد ما على مقالات بن چنسن Ben Jonson .

(٢) العصر الثانى : ثم خطت المقالة أولى خطواتها نحو السهولة والارتباط على يدى أبرهام كسولى . فلما جاء دريدن وخلص النثر الإنجليزي فى التعقيد اللفظى والمحسنات ، وجعله صالحاً للتعبير عن أغراض الحياة العادية ، كان لعمله هذا أعظم الأثر فى المقالة الإنجليزية ، فتحسن

أسلوبها ، وتعددت موضوعاتها ، وأصبحت سهلة على الكاتب محبة إلى القارى .

(٣) العصر الثالث : والقرن الثامن هو عصر المقالات الذهبى ، ففيه انتشرت المقالات الدورية فى المجلات والصحف ، ولم يترك كتابها موضوعا إلا طرقيه ؛ وبلغت المقالة فيه الذروة فى ثلاثة عهود بينها فترتا ضعف نسبى . فالعهد الأول هو عهد الكاتبين الكبيرين استيل وأدسن ، والثانى هو عهد صمويل جنسن وجولد سميث ، والثالث عهد لام وهازلت . ولعل أهم سبب من أسباب الضعف الذى طرأ على المقالة فى الفترتين اللتين تتخللان هذه العهود الثلاثة ذلك المستوى الرفيع الذى بلغته فيها ، فأنصرف الكتاب حينما من الدهر إلى ميادين أخرى ، يكونون فيها أقدر على إظهار مواهبهم كميادين الروايات والمسرحيات ، وظلوا كذلك حتى توارت شخصية الكتاب العظام ، فلم يعد الكتاب الجدد يخشون أن يصدروا صحفا وينشئوا مقالات على غرار الصحف والمقالات التى توارت بموت أصحابها .

(٤) العصر الرابع : وبدأت المقالة من جديد فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم تكن موضوعاتها فى هذه الفترة مقصورة على المدينة وما فيها ، بل جارت روح العصر فانتقلت كما انتقل الشعر إلى الريف . وأعظم من يمثل هذه الفترة من الكتاب لي هنت Leigh Hunt ؛ وقد أخذ يترسم خطى أدسن وجولد سميث وإن كان ينقصه مواهبهما وشعورهما المرفه وفكاهاتهما الحلوة . وظهرت فى القرن التاسع عشر طائفة كبيرة من الكتاب منهم مكولى صاحب السير والمقالات التاريخية والانتقادية الشهيرة . ولقد خلت هذه المجموعة من مقالات هذا الكاتب العظيم لأن

مقالاته تختلف كل الاختلاف عما يضمه هذا الكتاب بين دفتيه ، ولأن كل واحدة منها تصلح لأن تكون كتابا مستقلا ؛ ولعلنا نوفق إلى عرض نماذج منها على القراء .

(٥) العصر الخامس : وفي بداية هذا القرن — القرن العشرين — ظهرت طائفة جديدة من كتاب المقالات لا تدور مقالاتهم حول شخصية الكاتب أو عيوب المجتمع ، بل تدور حول الموضوعات العامة التي تشغل الأذهان في هذا الجيل ، وإن كانت المقالة الأدبية لم يعد لها ذلك الأثر القوي والشأن العظيم اللذان كانا لها طوال القرن الثامن عشر وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولقد كانت المقالة عظيمة الأثر في إنجلترا من الناحيتين الاجتماعية والأدبية . فأما من الناحية الأدبية فهي الوسيلة التي برزت بها إلى الوجود مواهب كثيرين من الأدباء الناشئين الذين أفادوا العالم بحكمتهم وفكاهتهم ؛ كذلك كانت المقالة الأدبية منشأ القصص الروائي ، كما كانت سببا في وجود النقد الأدبي الذي بلغ مستوى رفيعا على يدى مكولى .

وكانت المقالة الدورية تقصرها وأسلوبها الساس الخفيف ، وموضوعها الهين غير العميق ، سببا في خلق جمهور من القراء يرقب ظهورها ، ويقبل على قراءتها ، ويتحدث بما فيها من نقد وفكاهة ؛ وبذلك خبث إلى الناس الدرس والقراءة .

هذا من الناحية الأدبية . وأما من الناحية الاجتماعية فقد كان للمقالة في القرن الثامن عشر فضل كبير في تطهير المجتمع الإنجليزى من كثير مما فيه من العادات الذميمة والعيوب الأخلاقية الصغيرة ، وذلك بنقدها

اللاذع الذي كان يسلك سبيل الجد أحيانا والفكاهة أحيانا أخرى .

وقد حرصنا في هذا الكتاب على أن نختار من المقالات أكثرها ملاءمة للقارئ العربي ، فلم نختَر ما هو إنجليزي بحت لا من ناحية الموضوع ولا من ناحية التفكير ، ولا ما هو شديد الصلة بموضوع محلي خاص .

ولقد حرصنا كذلك على أن تكون المقالات متنوعة في موضوعاتها وأسلوب كتابتها ، فهي تختلف بين الجد والفكاهة ، والخيال والحقيقة ، والسارة والمحزنة ، والطويلة والقصيرة . ولم نختَر لكاتب واحد أكثر من مقالين إلا لكاتب واحد من كبار الكتاب هو أدسن ، ومع هذا فإن مقالاته التي اخترناها متنوعة غير متشابهة في موضوعها حتى لكأنها لكتاب مختلفين

ولقد حاولنا أن نجعل أسلوب هذه المقالات أقرب ما يكون إلى الأسلوب الإنجليزي في بساطته وخلوه من الزخرف والمحسنات اللفظية . وإذا كان هذا الكتاب قد خلا من آثار بعض كبار الكتاب فعُذرنا أنه مهما كبر لا يتسع لكل كاتب ولكل مقال ؛ ففي الأدب الإنجليزي من المقالات الجميدة ما يملأ مائة من أمثال هذا الكتاب ؛ ولعل الله يوفقنا إلى أن نتبعه بجزء ثان له في القريب العاجل .

المراجع التي اخترت منها هذه المقالات

- 1— A Hundred English Essays.
- 2— Bacon's Essays.
- 3— English Essays by Lobban.
- 4— The Spectator Essays from I to L.
- 5— Selections from the Spectator.
- 6— Essays of Elia.
- 7— Junior Modern Essays.
- 8— Still Lighter Essays.
- 9— Essays by Modern Masters.
- 10— More Essays by Modern Masters.
- 11— The Shape of Things to Come.
- 12— Selected English Essays.
- 13— Essays and Sketches.
- 14— A Book of English Essays.
- 15— Selected Essays.
- 16— Modern Literary Essays.
- 17— Selections from the Best English Authors.
- 18— Critical Essays of To-day.
- 19— More English Essays.
- 20— Modern Essays.

واعتمدت في الكلمة التي قدمت بها كل كاتب من الكتاب على
بعض الكتب السابقة وعلى :

- 1— The Encyclopaedia Britannica.
- 2— Who is who.
- 3— The Century Cyclopaedia of Names.
- 4— Macaulay's Critical and Historical Essays.

فى التـجـدـد

بقلم

فرانسس بيكن Francis Bacon

١٥٦١ - ١٦٢٦

[ولد من أبوين واسمى الثراء ، فتعلم وتهذب ، وشغل عدة مناصب عالية فى الحكومة وفى بلاط الملكة إليصابات والملك جيمس . وأنعم عليه بلقب لورد فى عام ١٦٢١ ، ثم أشهم بالعبث فى توزيع العدالة ، وحكم عليه بالسجن والغرامة ، وحرمانه من تولى أى منصب فى الدولة . وأهم ما أفاده العلم منه هو تأكيد أهمية الاعتماد على التجارب لا على الجدل المنطقى فى الكشف عن الحقائق ؛ وهو صاحب الطريقة الاستقرائية فى المنطق ، وقد وضعها فى كثير من كتيبه العلمية .

وتقوم شهرة بيكن فى الأدب الإنجليزى على مقالاته التى يقول عنها إنها « مذكرات موجزة » و « خواطر متناثرة » . وقد نشرت الطبعة الأخيرة منها المحتوية على ثمان وخمسين مقالة قبل وفاته بعام . وكثير من مقالاته الأولى عبارة عن مجموعة من الأمثال والحكم ، ولغته بوجه عام شعرية خطابية ، تحتوى كثيراً من التشبيهات والاستعارات ؛ وجمله قصيرة ، ولكنها من جوامع الكلم ، توحى إلى قارئها بأكثر مما فيها من المعانى . وهى من حيث وضوحها وقوة تأثيرها لا نظير لها فى اللغة الإنجليزية]

كل جديد يكون في بداية أمره مشوهاً سمجاً ، مثله كمثل الكائنات الحية عند ما تولد ، لأن الجديد من مواليد الزمان . ومع ذلك فإن المثال الأول — إذا كان جيداً — قلما يرقى إلى مستواه ما يجيء بعده ^(١) مقلداً له . ألا ترى أن أول من يرقون إلى مراتب الشرف من الأسر يكونون في الأغلب الأعم أعظم ممن يخلفونهم ، وأن من يجيء بعدهم قلما يرقى إلى مستواهم ؟ وسبب هذا أن الشر الذي يلتئم مع الطبيعة البشرية الفاسدة يقوى ويعظم أثره على مر الزمن ، كاللحجر الساقط من مكان مرتفع تزداد سرعته كلما طال تحركه ؛ أما الخير ، وهو حركة للنفس اضطرارية ، فهو أقوى ما يكون في البداية .

ولا جدال في أن كل دواء مبتكر هو في حد ذاته تجديد ؛ فإذا لم ينتفع الإنسان بوسائل العلاج الجديدة عرض نفسه حتماً إلى الأمراض الجديدة . والدهر لا يَنفك يحدث شروراً جديدة ، فإذا كان دأبه أن يبدل الأشياء إلى أسوأ مما كانت ، وإذا كان العقل والنصيحة لا يصلحان ما يفسده الدهر ، فإذا تكون النتيجة ؟

لسنا ننكر أن ما تقره العادة يكون على الأقل ملتئماً مع الأحوال السائدة ، صالحاً لمجاراتها ، وإن لم يكن خيراً في ذاته ، وذلك لأن الأشياء التي طال ائتمارها تتعاهد فيما بينها على البقاء مؤتلفة ، إذا صح هذا التعبير ؛ وأما الأشياء الجديدة فلا يوجد بينها مثل هذا الائتلاف ؛ فهي وإن أفادت الناس بما فيها من نفع ، تضايقهم بما يبدو عليها من عدم الانسجام ؛ وهي

(١) يصدق هذا كل الصدق على الفنون كالنصوير والنحت ، فترى النماذج الأولى في الفنون حية ناطقة ، وكل ما تثمره الجهود التي تبذل لتقليدها هو صور منها ميتة .

فوق هذا شبهة بالوجوه الغربية يدهش لها الرأي كثيراً ولا يحبها إلا قليلاً .
وقد لا يكون في هذا ضير لو أن الزمان كان جامداً لا يتحرك ، ولكن
عجلة الزمان لا تنقطع قط عن الدوران ، ومن ثم كان التثبيت بالقديم من
العادات لا يقل عنقاً وإرهاقاً عن التجديد . والذين يبالغون في تعظيم العهد
القديم إنما يعرضون أنفسهم لسخرية الجديد . لذلك كان خيراً للناس ، إذا
بدلوا وجددوا ، أن يكون لهم أسوة في الزمان نفسه ، فهو يجدد كثيراً ،
ولكنه يجدد في سكون ودرجات لا يكاد الناس يشعرون بها ؛ وهم
لا يشعرون بالتغيير لضآلته ، ولأن الناس في الغالب لا يتوقعون
حدوث الجديد .

والجديد يصلح أشياء ويفسد أخرى ، فمن أصابه خير اطمأن به وعده
من حسن حظّه وتوفيقه ، وحمد من أجله زمانه ؛ ومن أصابه شر رآه
ظالماً وقع عليه ولا م من أجله فاعله .

ومن الخير كل الخير ألا تقدم على التجارب في شؤون الحكم وسياسة
الدولة ، إلا إذا دفعتك إلى هذا ضرورة عاجلة أو فائدة محققة ؛ واحرص
على أن يكون الإصلاح هو الباعث الحقيقي على التغيير لا العذر الذي ينتحل
لتبرير الرغبة فيه .

وحاذر أن يكون الجديد مدعاة لارتباب الناس وسوء ظنهم حتى إذا
لم يرفضوه ، واعمل بما جاء في الكتاب المقدس « قفوا على الطريق وانظروا ،
واسألوا عن السبيل القديمة أين هو الطريق الصالح ، وسيروا فيه تجدوا
راحة لنفوسكم » (١) .

(١) إرميا ٦ : ١٦ وقد أوردنا النص كما هو في الكتاب المقدس . المغرب

حماقة

بقلم

بن جنسن Ben Jonson

١٥٧٣ - ١٦٣٧

[من كبار شعراء الإنجليز ، كان معاصرا لشيكسبير ومن أصدقاء الشاعر الكبير ، وكان أصغر منه بتسع سنين . عمل في أول حياته بناءً ، ثم جنديا وممثلا ، ولما بلغ الثالثة والعشرين بدأ يكتب الروايات التمثيلية المحتوية على كثير من الأغاني العذبة . وعين شاعرا للبلاط في سن السادسة والأربعين ، ولكنه مات بئسا فقيرا ، ومصر بقبوره عابر سبيل فاستأجر عاملا بشان ونصف كتب عليه العبارة الآتية : «ما أقل أمثالك يا بن جنسن» . وتقوم شهرة بن جنسن على مسرح حياته وشعره أكثر مما تقوم على مقالاته ، وكان أعظم ما يتمناه معاصروه أن يعدوا من أتباعه] .

٢

ما أحقر الأشياء التي نعجب بها ونعظمها ؛ وما أشبهنا في هذا بالأطفال الذين يعجبون بكل تافه حقير ، ويفضلون اللعبة تهدي إليهم عن آبائهم وأمهاتهم . وأي فرق بيننا وبينهم إلا أن حماقتنا أغلى ثمننا من حماقتهم ، وأن طيشنا أعلى درجة من طيشهم ؟ فهم يعجبون بالصدف والصفارة والدمية وأمثالها ، ونحن نعجب بالتمائيل وأعمدة الرخام التذكارية والصور والسُّقُف المذهبة من ورائها الجص والجير ، وقد لا يكون من ورائها إلا الطين .

لكننا نعجب بهذا المظهر الكاذب ، ويعظم سرورنا حين نستطيع أن نخادع به أنفسنا .

وليس هذا الخداع مقصورا على جُدرنا وسقفنا ، بل إن كل ما نسميه سعادة لا يعدو أن يكون زيفا وبهرجا كاذبا لا يقصد به إلا جمع المال . إنهم يسمون هذا شرفا ، فإذا كان كذلك فهو غشاء من الشرف رقيق يسف عما تحته . ولقد انمحت المكارم كلها من يوم أن صار المال من أسبابها ؛ وليس هذا في الحقيقة بعجيب ؛ لكن عامة الناس ، وهم الأكثرية الغالبة منهم ، وإن اختلفوا في كل شيء ، قد اتفقوا في شيء واحد وهو حب المال . فهم يرغبون فيه ، وهم يحرصون عليه ، وهم يعبدونه ، في حين أن مالكة يلاقى من العناء والشقاء بعد الحصول عليه أكثر مما يلاقيه في أثناء السعي له .

الصلاة

بقلم

جرى تيلر Jeremy Taylor

١٦٦٧ - ١٦١٣

[من كتاب المواعظ ورجال الدين العظام الذين عاشوا في عهد تشارلس الأول وعهد الجمهورية ، وربما كان تيلر أشهرهم جميعا . وقد كتب عددا من المواعظ والمقالات الدينية ، ولكن أهم ما كتب الرسالتان الدينيتان الشهيرتان « الحياة القدسية Holy Living » و « الموت القدسي Holy Dying » وأسلوبهما سهل جيد خال من التعقيد الذي كتب به مواعظه .]

٣

لا شيء في العالم أدل على الخطر المحقق بأرواحنا من تباطؤ الكثرة الغالبة من الناس دائما ، وتباطؤ الناس كلهم أحيانا ، عن أداء الصلاة وتأخيرها عن أوقاتها . إنهم يملون طولها ، ويسرون إذا أتوا على آخرها ، وينتحلون المعاذير للهرب منها ، كل هذا في حين أن الصلاة ليست إلا دعاء لله أن يهبنا أعظم ما نحتاجه في هذا العالم ، وخير ما نحتاجه ، وما يحقق سعادتنا فيه . والصلاة في ذاتها عمل شريف هين ، والغرض الذي تؤدي من أجله نبيل . وليس في الواجبات الدينية كلها ما هو أدل على رغبة الله في إسداء الخير إلينا ، وامتناعنا عن قبول هذا الخير ، وعلى نعم الله علينا

وكفرنا نحن بهذه النعم ، وعلى عميم فضله علينا وعلى حماقتنا واستهتارنا بهذا الفضل ، ليس أدل على هذا كله من أن يهبنا الله هذه النعم وأن يستجيب دعاءنا ونحن نقوم بهذا الواجب الهين .

وبفضل الصلاة قد نجت المدن والممالك من الدمار ، وأحيى الموتى ، وكانت النار بردا وسلاما ، وكمت أفواه الوحوش ، وغير مجرى الفلك ، وأنزل المطر في مصر ، وانشق البحر ، وغاض الماء . والصلاة تشفى المرضى بلا دواء ، وتُكسب الدواء قوة الشفاء ، وتأتى بالمعجزات ؛ وليست الصلاة التى تفعل هذا كله إلا توجيه العقول والسمو بها نحو الخالق جل وعلا ، والرغبة فيما هو جدير أن يرغب فيه ، والتعبير عن هذه الرغبة بأيسر الوسائل وأجدرها بالإنسان . وليس القعود عن الصلاة إلا دليلا على عدم الرغبة فيما يجب أن يرغب فيه ويحرص عليه ، وقد يكون دليلا على ما هو أدهى وأمر ، وهو أن القاعد عنها يفضل خسران النعيم والسعادة عن أن يتوجه بطلبهما إلى الله عز وجل .

متاعب الرجل الشريف في المجتمع

بقلم

أبرهام كولى Abraham Cowley

١٦٦٧ - ١٦١٨

[من الكتاب الأولين بعد عودة النظام الملكي إلى إنجلترا . درس في جامعتي كمبرج وأكسفورد ، وكان من أشد أنصار الملكية . وفي هذا العهد كان النثر الإنجليزي يتطور من صورته القديمة المعقدة ، وأسلوبه الثقيل بالمحسنات ، إلى صورته الحاضرة التي جعلته صالحا لأداء أغراض الحياة . وكان كولى شاعرا وناثرا ، كتب شعرا باللغتين اللاتينية والإنجليزية ، غير أن شعره لا يُعنى به كثيرا في هذه الأيام ، وإن كان الكثير منه جيدا . أما مقالاته فمن النوع الجيد المطرب الخالي من التكلف والإغراب ، وقد وصفه تشارلس لام بقوله : « إنى أحب مقالاته وأفضلها حتى عن مقالات أدسن »] .

٤

إذا كان عشرون ألف أمريكي أعزل قد عجزوا عن صد هجمات عشرين أسبانيا مدججين بالسلاح ، فهل في وسع رجل شريف واحد أن يتقى أذى عشرين ألف رجل خسيس ، مسلحين من قمة الرأس إلى أخمص القدم بسلاح الدفاع في هذا العالم ، سلاح الذكاء والفتنة ، وسلاح الهجوم فيه وهو سلاح الحقد والختل ؟ وإذا اضطر هذا الرجل الشريف أن يكون دائم

الاتصال بالناس ، فما أشد ما يلقى من العنت منهم ؛ وليس فى وسعى لهذا السبب إلا أن أسدى إليه النصيح أن يربأ بنفسه من هذه الساعة عن النزول إلى الميدان المكشوف ، بل عليه أن ينسحب منه ويسد جميع السبل على هؤلاء الأعداء الكثيرين ، ولا يدع لهم ثغرة ينفذون منها إليه . والحق أن الرجل ذا الأعمال الكثيرة إذا لم يكن غشاشا محتملا ، كان فى نظر العالم أبله ، عديم الفطنة ، واتخذة الناس سخرية لهم . ولو كان كل ما يصيبه من الأذى أن يسخر الناس منه لاستطاع أن يثأر لنفسه بالسخرية منهم ؛ ولكن الأذى أشد ، لأن أولئك المتمدنين الذين يأكلون لحم إخوانهم من بنى الإنسان يفعلون ما يفعله أكلة اللحوم البشرية من المتوحشين ، فيرقصون حول فريستهم قبل أن يلتهموها . فالرجل الذى لا يتعاطى الخمر مثلا لا يسهل عليه أن ينجو من أذى السكارى ، وإن كانوا فيما بينهم ظرفاء مرحين ، فإذا ماسقته الأقدار إلى بيتهم لقي منهم أشد الأذى ، بل تعرض للخطر الشديد . فهل تعجب بعد هذا إذا فضل الرجل الشريف الوحدة ولم يجد سبيلا للنجاة غير هذه السبيل ؟ .

وإذا ما اعتزل الإنسان الناس وهو فى وسطهم لقي من العنت أشد مما يلقاه إذا ابتعد عنهم ، فهم من حوله وحوش كاسرة ، منهم كلاب متملقة متذلة ، ومنهم آساد زائرة ، وثعالب ماكرة ، وذئاب خاطفة ، ونسور شرهة ضارية . وإنى لأعتقد أن أكثر الأمم مدنية هى أكثرها فى نظر الناس همجية ، وأن من أكلة اللحوم البشرية من لا تخلو طباعهم من الاعتدال ولين العاطفة ؛ فهم لا يأكلون إلا أعداءهم . أما نحن الأوربيين ذوى العلم والأدب فإننا كوحوش السمك نفترس كل مانسة طيع أن نبتلعه .

يفخر العلم وتفخر الفلسفة بأتهما قد جمعا الناس بعد أن كانوا متفرقين ،
فألفوا منهم الأمم والشعوب ، ثم شيد الناس الدور وأنشئوا المدائن . ألا ليت
العلم والفلسفة يستطيعان أن ينقضا ما عملا ، ويهدما ما بنيا ، لكي تعود
إلينا من جديد غاباًتنا وطهارتنا ، فنستبدل بها قصورنا الفخمة ومدائننا
العظيمة . لسنا ننكر أن العلم والفلسفة قد حشدا مئات الآلاف من الناس
في صعيد واحد ، ولكنهما قد جمعا هم ليغش بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم
بعضا . لقد كانوا قبل العلم والفلسفة يصيدون وحش الغاب ، وسمك
البحر ، وطيور السماء ، فأصبحوا بفضل العلم والفلسفة يصيدون إخوانهم من
بني الإنسان ؛ والعلم والفلسفة يباهيان بأتهما قد أقرا بينهما السلم ، والحقيقة
أنهما قد علماهم فنون الحرب . نعم إنهما قد سنّا لهم شرائع صالحة لكبح
جراح الرذيلة ، ولكنهما هما اللذان أخرجاهم من قبل شيطان الرذيلة ، ثم
أخذوا يحاولان بعد ذلك عبثاً أن يترضياه ويُقيدهاه . ولست أنكر أنه
لم يكن في بداية العالم عقاب على الشر ولكن الناس في ذلك الوقت لم
يكونوا يرتكبون إلا القليل منه ، لأنهم لم يكونوا يجنون من ورائه خيرا .
على أن الذين يمتدحون الفلسفة لهذا السبب مخدوعون ، لأن الفلسفة لم يكن
من عملها في يوم من الأيام أن تجمع الجماهير المشتتة ، وكل ما فعلته أن
نظمتها وسيطرت عليها بعد أن تجمعت ، وعلمتها كيف تجنى من الشر
أحسن ما يمكن أن تجنيه من الفوائد . ولقد كان الطمع وحب المال وحدهما
الدعامتين اللتين شيدت عليهما المدن وقامت عليهما الدول . فإذا كان منشأ
رومة حاضرة العالم القديم بأسره ؟ هل كانت أكثر من ملحق جماعة من
اللصوص وملجأ للمجرمين ؟ ألم يحم في جوها عند بنائها اثنا عشر نرساً

كاسراً؟ ألم يُرق بانيتها على جدرانها دم أخيه؟ ولعل هذه الخطيئة الأولى قد ارتكبت في المدن التي قامت على وجه الأرض ولا تزال ترتكب فيها إلى اليوم، وكلما كثر أهلها زادوا إثمًا على إثمهم، لأن كل من جاءها حمل إليها نصيبه من الداء ليزيده استفحالا حتى يستعصى على الشفاء ويصبح لا نجاة منه إلا بالخروج من حماة. ولو أننا استطعنا أن نجد دواء شافيا لكل ماعساه أن ينشأ في مدننا من أدواء، ولو أننا كنا دائماً مسلحين مستعدين لصدهجمات الأعداء ومقاومة الخونة المارقين، لما أصبحت هذه الحياة المروعة مع ذلك حياة أمن واطمئنان؛ ولكن مثلنا في هذا كمثل آبائنا الأولين الذين كانوا يحيطون أنفسهم بالنار ليمتقوا بها هجمات الوحوش، فكان همهم على الدوام أن يراقبوا النار حتى لا يخمد أوراها، وكانت خشيتهم من التهاون في الحراسة نخشيتهم من حركات العدو المهاجم. كذلك ترى الرجل الفاضل معرضاً لأن يطأه بأقدامهم من ليسوا على شاكلته، وهم لعمري كثيرون، هذا إذا لم يصبه ما هو شر من ذلك وأعظم خطراً عليه، وهو أن يبدلوا أخلاقه ويفسدوه. ولا سبيل له إلى النجاة من هذين الشرين إلا بالحرص الدائم والحذر الشديد. ومن شأن هذا الحرص وذلك الحذر أن يفسدا عليه راحته وهدوء باله، أي أن يقضيا على سعادته. هذا ما يخسره الرجل الشريف في هذا المجتمع، فانظر إذاً أي خير يصيبه منه؟ إنه كالرجل العريان ينزل إلى الماء ليصيد السمك. إن في وسع هذا الرجل أن يسبح في الماء، ولكنه عاجز عن الصيد، بل أكبر الظن أن السمك نفسه سوف يلتهمه، لأنه لم يعد له عدته من الشراك ومن الخداع؛ ولهذا أعتقد

أن النصيحة التي أسداها مارشال Martial^(١) إلى فايوس Fabius^(٢) حين قدم هذا إلى رومة كانت نصيحة صديق مخلص حكيم :

« أيها الرجل الشريف المسكين ، المخلص في قوله وفي تفكيره ، أى شيء جئت به إلى هذه المدينة ؟ إنك لن تستطيع أن تكون ماجنا مهرجا ، ولا قواداً خسيسا ، ولا أن تخدع الأطهار بالألفاظ الكاذبة المعسولة ، أو تفسد الأزواج المحصنات ، أو تحصل بجذك وكدحك على ماقيم أودك ويحفظ عليك حياتك ، وإنك لتعجز عن أن تسلب الناس أموالهم بالوعود الكاذبة والمشروعات الزائفة الباطلة ، أو أن ترشو العظماء وتتملقهم ، بل أنت رجل عالم عادل حكيم ، ثابت قوى شجاع أمين ، إنك لن تستطيع أن تعيش في هذه المدينة إلا إذا ابتعدت عن الناس لتأمين شرمهم وحسدكم ، خير لك إذاً أن تعود من حيث أتيت ، وتقضى بقية أيامك حيث كنت » .

وإذا لم يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولم يتطلب المجتمع هذا كله ، فإن منظر القذارة والدناءة مما يعافه الرجل الطاهر النقي ، ومرأى الحق والفسوق مما يغضب له الرجل العاقل التقى .

ولقد دفعتني صحة الناس مرتين أو ثلاث مرات إلى دخول مستشفى

(١) ماركس فلريوس مارشال Marcus Valerius Martial (٣٨ ؟ —

١٠٤ م) شاعر لاتيني ولد في أسبانيا ولكنه قضى معظم حياته في رومه .

(٢) فايوس : اسم لعدد كبير من انقواد والساسة الرومان أبناء أسرة عريقة في المجد من الأسر الرومانية القديمة ، عاشت في رومة من بداية القرن الخامس قبل الميلاد ، ومنهم قاهر هنيبال القائد القرطاجي العظيم ، ولعله هو الذي يسدى إليه مارشال هذه النصيحة وإن لم يكن معاصرا له .

الأمراض العقلية ، ورأيت ابتهاج الناس حين يرون ما يأتيه المجانين من أعمال شاذة غريبة ؛ أما أنا فقد كان لهذه الأعمال في نفسي أثر غير هذا ؛ كنت أعود من بينهم مكتئباً حزيناً مما أرى وأسمع ، وقد زاد عطفي عليهم بعد وجودي بينهم ، مع أني أقابل في طريق آلافاً من مرضى العقول من غير أن تضطرب لرؤيتهم نفسي ، وإن كنت أعتقد أن الذين حرموا نعمة العقل كلها أقل بؤساً من الذين فسدت عقولهم وضلت سواء السبيل . وإن الذي يزن السعادة البشرية ، والثروة والشرف والجمال ، بل العقل نفسه ، بالميزان الصحيح ، يرى أن من يسيء استخدام هذه النعم أحق بالثناء ممن حرم منها .

وقصارى القول أن الرجل العاقل ، وإن استطاع أن يمضى سالماً آمناً في سبيل الحياة ، يلاقى على الدوام ما يثير فيه الأسى والحزن ، والخجل والغضب ، والحقد والسخط ، وغيرها من الانفعالات ما عدا الحسد (لأنه لن يجد في العالم ما هو جدير أن يحسد) ؛ ومن أجل هذا كان من الخير له أن يعتزل الناس ويتنكب طريقهم ، حتى لا تصل إلى آذانه أنباء فعال بنى جنسه . ولكن أين المفر ؟ أيفر إلى الصحراء كما كان يفعل النساك القدامى ؟ إنى ليخيل إلى أن الناس كلهم قد أقسموا على ألا يتركوأ شيئاً إلا ارتكبوه ، وأنهم جميعاً قد باعوا أنفسهم إلى الخطيئة ، لا فرق بينهم في هذا إلا أن بعضهم كانوا أدهى قليلاً من البعض الآخر ، وأقدر على المساومة . ولقد ظننت حين ذهبت لأول مرة لأسكن الريف أنى سأجد فيه تلك السذاجة التي يشغني بها شعراء العصر الذهبي القديم ، وحسبت أنى لن ألقى

فيه إلا أمثال الرعاة الذين وصفهم السير فلب سيدنى^(١) Sir Philip Sydney في أركاديا Arcadia ، وأخذت أفكر في الطريقة التي أصور بها للأجيال المقبلة ما أنا واجد فيه من السعادة والطهارة . ولكن سرعان ما خاب ظنى إذ تبينت أنى ، وإن تركت العاصمة ، ما زلت في إنجلترا ولست في أركاديا ، وأنى إذا كنت أبحث عن صدق القول ونقاء السريرة فإنى لن أجدها في الريف ، لأن الريف خال منهما خلو بلاط الملوك أو سوق المال . وإذا كانت هذه هي الحال فأين المفروم العمل ؟ إن الدنيا لتعترض طريق الإنسان حتى لا يجد له مفراً من أن يصافحها ، فليفعل ذلك إن استطاع ، ولكن ليحذر أن يجرى وراءها ، أو أن يذل نفسه لها ؛ وإذا ما أوجبت عليه دواعى عمله المشروع ، أو ألزمته الضرورة ، أن يوفق بينه وبينها ، فليجعل نفسه السيد المسيطر عليها لا العبد الخاضع لها . وما أسعد من يستطيع النجاة بنفسه من هذه الغائية الغاوية المخادعة ، فلا يفر من ضجيج العاصمة وصخبها فحسب ، بل يباعد بينه وبين كل بلد كبير أو صغير .

(١) سير فيليب سيدنى Sir Philip Sidney ١٥٥٤ — ١٥٨٦ شاعر وكاتب وجندى وسياسى إنجليزى شهير ، كان يعد فى أيامه مثلاً أعلى للرجل السكامل المذهب يشتهر فى الأدب بروايته المسماة أركاديا Arcadia وهى وصف ممتع لحياة الرعاة ، وقد كتبت قبل أيامه ويعدّها عدة روايات من نوعها وسميت بهذا الاسم نفسه .

متطبيب دجال

بقلم

دانييل دفو Daniel Defoe

١٦٥٩ - ١٧٣١

[استبق أدسن واستيل في إنشاء المجلات الدورية ، وذلك حين أصدر في عام ١٧٠٣ (المجلة) The Review . وقد أنشئت على غرارها جريدتا الحدث والناظر The Tattler ، The Spectator . وقد كتب عدة نشرات سياسية ومقالات أدبية ، ولكن أعظم ما يشتهر به هو القصص وبخاصة كتابه الذائع الصيت ربسن كروز Robinson Crusoe ، الذي طبع في عام ١٧١٩ ، وهو أساس الروايات الأدبية التي ظهرت فيما بعد على يد فيلدنج ومعاصريه . ويمتاز دفو بقدرته على تصوير الحوادث الخيالية بحيث تبدو كأنها حقائق لا شك فيها ، كما يبدو من مقال المتطبيب الدجال المنشور هنا .]

٥

مررت بالأمس مصادفة في إحدى القرى القريبة من المدينة فشاهدت منظراً غريباً ؛ شاهدت عربية نخمة يجرها جوادان متجهة نحوى ؛ وقد استرعى نظرى ما كان يبدو على الجالس فيها من وقار وهيبة ، وعلى السائق من غيرة وحماسة ، فأيقنت لساعتي أن الراكب فيها وزير خطير من وزراء الدولة ذاهب ليقضى في شأن هام من شئون البلاد . ولما وصل الراكب إلى وسط

القرية وقفت العربية فجأة ، ونزل من مقعدها الخلفى تابع فى ثياب جميلة
عزركشة ، وسار حتى وقف أمام سيده ، ثم نفخ نفخة عالية فى بوق معه .
ولشد ما دهشت حين رأيت خادما يستحيل بهذه السرعة إلى زمّار ، وأخذت
أفكر فيما عسى أن يكون معنى هذه الظاهرة الغريبة . وبينما أنا غارق فى
تفكيرى إذا بالسائق يقفز هو الآخر من مقعده ، ويضع سوطه فى مكانه
على العربية ، ويخلع سترته الكبيرة ، ويستحيل فى أقل من لمح البصر إلى
مهرج من الطراز الأول . وعندئذ بلغ منى العجب غايته ، وبدأت تساورنى
الشكوك فيما عسى أن ينتهى إليه هذا المسخ والتحول ، وإن كان المهرج قد
أخذ يلوى شذقيه ويلوح بيديه ليدخل السرور على . أما أنا فنظرت أولاً
إلى الجواد ثم إلى دواليب العربية ، لأنى كنت أتوقع فى كل ساعة أن يأتى
دورهما فى هذه المهزلة فينقلبا إلى أشياء أخرى لا أعرفها . وكان السيد طوال
هذا الوقت قد ظل هادئاً وقوراً ، ولكنه فى هذه اللحظة أخذ هو الآخر
يخلع عنه هذا المظهر المخادع ، فاطرح وقاره واحتشامه ، ونفخ أوداجه ،
وتكشف عن دجال وقح قد أوفى فى الدجل على غايته ، وعندئذ تبينت أنه
منتطب دجال من أعظم الدجالين .

فلما تبينت هذا زاد شوقى إلى تتبع حركاته بقدر ما قلت حيرتى من
أمره ، واشتدت رغبتي فى أن أستمع عن كُتب إلى ما سوف يقوله الطبيب
أو أن أعرف أى سر جديد فى عالم الطب قد وفق إلى الكشف عنه ،
فانتقلت من مكاني وانضمت إلى من التف حوله من الجماهير . وبدأ الرجل
حديثه بمقدمة صغيرة ، ثم أخذ يشرح الغرض من زيارته ويطنب فى وصف
ما يكنه لأهل هذا البلد من حب خالص ، وما يمتاز به من علم وبراعة ،

ويعدد الأمراض المستعصية التي شفاها بمقدرته ، ويسهب في تحذير الناس مما يتعرضون له من خطر داهم إذا لم يستطبوا بدوائه ، ويعرض عليهم صحة الجسم وطول العمر بثمن بخس دراهم معدودة .

ولو أنك سمعت ما كان يتناثر من فم هذا الخطيب المصقع من ألفاظ سخيفة ، وتعايير عجيبة ، وتشبيهات متناقضة ، لتمرق جنباك من الإغراق في الضحك . أما أنا فقد تحيرت أول الأمر في معرفة مصدر هذا السخف الذي أَلَفَ منه خطابه الطويل ، ولم تزل هذه الحيرة حتى أخبرني بعضهم أنه يعنى عناية شديدة بقراءة « البريد الطيار » ^(١) ، وأن معظم السخف الوارد في خطابه مستمد من أقوال محررها النابه . وكنت تراه أحيانا يسف إلى أحقر العبارات العامية التي يتصورها العقل ، وأحيانا تراه ذرب اللسان واسع المجال ، لا يشق له في ميادين الفصاحة غبار . نعم إنه كان مقتصداً في العبارات اللاتينية واليونانية لأن محصوله منها — علم الله — غير موفور ، لكن الكلمات الضخمة ، والعبارات المعقدة التي لا أفهمها أنا أو أنت أو هو نفسه ، كان يتدفق سيلها الجارف من فمه تدفقاً لا يترك مجالاً للشك في أنه يكرر ما حفظه من فلسفة أجرياً ^(٢) الخفية أو يقرأ محاضرة لأحد كبار الكيميائيين .

(١) The Flying post ودفو هنا يتهكم على عدوه جورج ردبات George Ridpath محرر هذه الجريدة . وكان دفو يرسل جريدة أخرى بهذا الاسم نفسه سماها ردبات جريدة « البريد الطيار المزورة » . The Sham Flying post .
(٢) هنرى كورنيليس أجرياً Henry Cornelliuss Agrippa ١٤٨٦ من أهالى مدينة كولونى فى ألمانيا اشتغل بدراسة الكيمياء الكاذبة وكتب فيها كتابه الفلسفة الخفية وغيره من الكتب . Occulta Philosophia

وبعد أن أفاض الطبيب في ذكر الأدلة القاطعة على ما انطوى عليه قلبه من حب للإنسانية وما يمتاز به من علم غزير وبراعة منقطعة النظير — انتقل إلى الكلام على فضائل أدويته .

وهل كان في وسع أحد من سامعيه أن يفكر عليه حبه الشديد لخير البشر ، أو علمه الغزير وبراعته المنقطعة النظير ، أو أن يصل به عدم المجاملة إلى الحد الذي يمتنع معه عن شراء دوائه ؟ ولو أن أحداً منا كان حريصاً على ماله حرص البخيل ، وتشبث به حتى في هذه الظروف ، لكان ثمة باعث آخر قوى يتضاءل أمامه هذا الحرص ويهون في سبيله المال ؛ فلقد أدخل الطبيب في روعنا أن أحداً منا لا يخلو قط من جراثيم داء عضال كامنة في جسمه مستكنة فيه ، وألا شيء في العالم ينجينا منها إلا دواء من أدويته ؛ وأنذرنا بالموت المحقق إذا امتنعنا عن شراء دوائه ، وأكد لنا تأكيد الواثق أننا لن ننجو من الموت إذا لم نسارع إلى شرائه ، بل سنستوفي كلنا حظنا من الحياة قبل أن يحول الحول . وارتاع الناس المساكين من هول الخطر المحقق بهم ، ولكن علمهم بأن من أسهل الأشياء عليهم أن يتقوا هذا الخطر الشديد ، سرى عنهم هذا الخوف ، ولم يتردد واحد منهم في أن يبتاع لنفسه شيئاً من الدواء ثم أفسحوا الطريق للطبيب ليبدأ عمله من جديد .

فلما أسدل الستار على هذا المنظر بدأت الخواطر تتوارد على عقلي ، وكانت مما يبكي تارة ويضحكني تارة أخرى ؛ فقد كان غرور الطبيب وبلاهة مرضاه من السخف بحيث يضحكان من كان أعظم مني وقاراً ورزاقاً ؛ لكن المأساة التي أختتم بها هذا المنظر وما قد يكون لهذه الأدوية القتالة من سوء الأثر في مواطني السذج الأبرياء ، كل هذا يكفي لأن يبعث

أعظم مهرج على التفكير الجدى العميق . إننى قلما صادفت فى حياتى جماعة أنشط عقولا أو أصح أجساماً من أولئك الذين التفوا حول هذا الطبيب الجرىء ، ولقد كان يخيل إلى أنى أستطيع أن ألس الصحة والقوة مجسمتين فى وجوههم الناضرة ، وأن ليس منهم واحد إلا يكاد وجهه ينطق بتكذيب دعوى الطبيب بأنه مريض . ولو أن الإنسان كان فى وسعه أن يخترق حجب المستقبل القريب ، ويشاهد ما يصيب أولئك الأقوام بعد بضعة أشهر ، لهاله الأمر ؛ فكم من شاب مقتول العضلات أراه بعين الخيال يتلوى فى ركن داره ، وكم من فتاة موردة الخدين أبصرها شاحبة هزيلة^(١) .

وفى نيتى أن أزور هذا المكان مرة أخرى بعد زمن قليل لأرى بعينى ماذا كان لدواء الطبيب من أثر فى ساكنيه ؛ وسأخص فيه عن سجلات الموتى وأقارن عدد من توفاهم الله من أهله فى كل أسبوع من الأسابيع السابقة لزيارة الطبيب بعدد من قضوا نحبتهم بعد هذه الزيارة ، لأعرف من هذا الفحص عدد الضحايا الذين فتك بهم هذا السفاح فى ساعتين من الزمان . وإذا حسبت بعد ذلك عدد الدجالين فى أنحاء البلاد كلها عرفت من غير عناء عدد من تقضى هذه الطائفة على حياتهم فى كل عام ؛ وسأقدر بعد ذلك ما يصيب الدولة من خسارة بموت كل واحد من أبنائها ، فأعرف بذلك مقدار ماتتحمله البلاد من خسارة جسيمة فى الأموال ، ويتبين الشعب صدق ما أكدته من قبل ، وهو أن الأطباء الدجالين يعملون على إفقار الشعب أكثر مما تعمل ديون الدولة كلها مجتمعة ، وأن القضاء على هذه الطائفة هو خير طريقة لأداء هذه الديون . وسأعد الموضوع كله إعداداً وافياً

(١) لقد كان فى وسع دفو أن يعرف الشئ الكثير عن هذا الموضوع بقراءة إعلانات الدجالين التى كانت تنص بها صحيفته .

دقيقاً وأعرضه على البرلمان في دور انعقاده المقبل . ولست أشك مطلقاً في أن هذا المجلس الموقر سيعنى به العناية الجديرة بخطر شأنه وبما سأورده فيه من آراء صائبة وحجج قوية .

ويخيل إلى أن القضاء في هذا البلد قد ظل يسير حتى الآن سيراً مليئاً بالمتناقضات والسخافات . نرى كثيراً من صغار الآمنين يشنقون أو ينفون من البلاد ، أما كبارهم فهم بمنجاة من العقاب ؛ فإذا اعتدى معتد على عابر سبيل فسرقت ماله أو سفك دمه ، سيق أمام القضاء ، وزج في غيابة السجن أو حكم عليه بالإعدام . أما أولئك المجرمون الذين يقتلون الناس زعماً ، ولا ينهبون مال الأفراد والجماعات فحسب ، بل ينهبون أيضاً خزانة الدولة ويفكرونها ، فلا يسألون عما يفعلون . بحقك يا رئيس التحرير هل كانت المشائق وكان الجلادون لغير هؤلاء ؟

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى ذلك الطيب . لقد دعاني حب الاستطلاع إلى فحص بعض أدويته في أحد المعامل ، فخلتها إلى موادها البسيطة تحليلاً كيميائياً ، وكانت نتيجة هذا التحليل أن عرفت أن في كل واحد منها مقدارا كبيرا من المواد السامة النباتية أو المعدنية ، فليس منها ما يخلو من الزرنيخ والزئبق والنباتات السامة ، لأنه ليس في مقدوره أن يصنع شيئاً ذا أثر في أجسام الناس إلا من أمثال هذه المواد . وهو يطلق على هذه المركبات أسماء مختلفة حسب الصورة التي تكون عليها ، فيسميها حبوبا أو أقراصا أو معاجين أو غيرها من الأسماء .

فأما حبوبه فإني أوصي باستعمالها بدل حبال المشائق ؛ فإذا كان إنسان قد مل هذه الحياة التعسة ، وأراد أن يستبدل بها حياة غيرها خيراً منها ، ولكنه يستدرك أن يتخلص منها بتلك الطريقة العتيقة التي يسونها شنقاً ،

فإن في وسعه أن يصل إلى غرضه بطريقة أظرف وأضمن ، وذلك بأن يبتلع بعض هذه الحبوب العجيبة . وأما أقراصه فلا يعلو عليها شيء من نوعها ؛ ولقد جربتها في عدد من الحيوانات فما وجدت أحسن منها لتسميمها . ذلك أن مقداراً متوسطاً منها قد أسكت في لمح البصر كلبا نباحا اعتاد أن يقلق راحتي في الصباح الباكر ، كما أن مقداراً آخر مثله قد هدأ من نائرة طائفة أخرى من الكلاب الصغيرة كانت كثيرة العواء في الحى الذى أسكن فيه . وإذا كانت الجرذان تضايقك فإن معجون الطبيب علاج ناجح لا يخيب قط ؛ وقد جربت ذلك بنفسى فظهرت بيتى من هذه الحيوانات المؤذية بوضع مقادير صغيرة منه في الأماكن التى تتردد عليها . وإني أوصيك ياسيدى ^(١) باستعماله كما أوصى به جميع قراء جريدتك ، وأؤكد لهم أنه أقوى سم للجرذان في العالم .

ولا حاجة بي بعد هذا لأن أعدد جميع فضائل أدوية الطبيب الأخرى ، ولكن في وسعى أن أؤكد للقراء أن ما جاء في الخرافة القديمة العجيبة الخاصة بصندوق پندورا Pandora ^(٢) يصدق بنصه على دواء الطبيب ، ففي هذا الدواء أصول الأمراض كلها بلا استثناء .

وقبل أن أختم هذا المقال أعتمد إليك ياسيدى الرئيس أن كنت جادا في الكتابة في هذا الموضوع الهزلى ، وأن قد أكرت من الكلام على هذا الدجال الجاهل السخيف .

(١) رئيس تحرير الجريدة .

(٢) پندورا امرأة جميلة تذكر الأساطير اليونانية أن چيتر Jupiter أعطاها صندوقا يحتوى جميع الأمراض والشروخ التى تصيب الإنسان ، فلما فتح هذا الصندوق انتهر ما كان فيه في العالم كله ، وكان ذلك من چيتر انتقاما من پروميثيوس Prometheus حين سرق النار المقدسة من السماء .

خواطـر سائـحة عـن يد مكنسـة

بقلم

جُونَاثَان سُوْفَت Jonathan Swift

١٦٦٧ - ١٧٤٥

[من أشهر الكتاب في أوائل القرن الثامن عشر ، نشأ فقيراً ورُسم قسيساً ، ولكنه لم ينل في عمله هذا ما كان يؤمله من الرقي ؛ وأثر في نفسه خيبة آماله واعتلال صحته فحقد على العالم ، وجن في آخر أيامه جنونا دام خمس سنين وانتهى بموته . وقد برع سوفت في الهجاء ، ومن أشهر ما كتبه فيه « رحلات جلفر Gulliver's Travels » وهي نقد لاذع وهجاء شديد للحالة السياسية والاجتماعية السائدة في عصره . وله أيضا عدة رسائل في تأييد المحافظين وهجاء الأحرار ، هذا عدا مقالاته . وأسلوبه قوى موجز خال من المحسنات اللفظية ، ولكن كتاباته يفسدها كلها حقد غرضه الشديد ، واستهتاره بالقوانين الأخلاقية .

ولسوفت أيضا عدد قليل من القصائد ، ولكنها ليست من الطراز الأول] .

٦

إن العصا التي تراها الآن منزوية مهمة في ركن من أركان هذه الحجرة كانت من قبل شجرة مخضرة في غابة كبيرة ، تجري فيها العصاراة الحية ، وتزينها الأوراق والغصون ؛ والآن يحاول الإنسان بفضله أن ينافس الطبيعة ،

فيشد إلى العصا الجافة الميتة حزمة أخرى من العساليح الذابلة .
ومهما فعلت بها فليس في وسعك أن تقول عنها أكثر من أنها شجرة
مقلوبة ، فرعها في الأرض وأصلها في الهواء ، تتلقفها كل خادمة قدرة
لتؤدى بها أشق الأعمال . ولقد شئت الأقدار الساخرة أن يكون جزاؤها
عن تنظيف غيرها أن تصبح هي نفسها قدرة ؛ وإذا بليت عساليحها في هذا
العمل المهيّن ولم تعد صالحة له ، أُلقيت من النافذة في الطريق ، أو استُخدمت
فيما هو شر من هذا وهو إيقاد النار .

رأيت هذه العصا وفكرت في أمرها فألّمني هذا التفكير ، وقلت في
نفسى « ما أشبه الإنسان بيد مكلسة » . لقد جاء إلى هذا العالم قوى الجسم ،
شديد البأس ، ممتلئاً بماء الحياة ، يظلل الشَّعر رأسه كما تظلل الغصون
الشجرة ، ثم أسرف على نفسه فتساقطت أغصانه وتركته جذعاً ذابلاً خاوياً .
وعندئذ عمد إلى الفن والصناعة ليصلح ما أفسد الدهر ، يلجأ إلى
المساحيق والأصباغ ، أو الشعر المستعار الذى لم ينبت يوماً ما على رأسه .
ألا ما أظلم الإنسان وما أبعداه عن العدل والنزاهة ! لو أن هذه العصا قد
جاءته تزهو بهذه العساليح المستعارة ، وبالتراب الذى تراكم عليها من حجرة
أجل سيدة في المدينة ، لسخر منها وازدراها لزهوها وخيلائها ، لكنه
يغمض عينه عما يفعل بنفسه . إن الإنسان لظلوم ، يرى عيوب الناس
ولكنه لا يرى إلا محاسنه .

ولقد يقول قائل : إن يد المكلسة رمز لشجرة وقفت على رأسها .
وهل الإنسان إلا مخلوق ركب رأسه ، وأكبَّ على وجهه ، وغلبت شهواته
الحيوانية على عقله الروحاني ، ووضع رأسه في موضع قدميه ، يدب على

الأرض ديب الدود ، ويدعى — على ما به من عيوب — أنه المصلح الأعظم ،
مُطهر الأرض من المظالم والشرور ، فتراه ينقب الآفاق ليكشف عما خفي
فيها من العيوب ، ويثير الغبار في الجو الصافي ، وهو مع ذلك ملوث بالأقذار
التي يدعى أنه يعمل لإزالتها . أما آخر أيامه فيقضيها عبداً ذليلاً ، خاضعاً
للنساء ، ولأقل النساء جدارة بالسيطرة على الرجال ، حتى إذا بلى جسمه ،
كما تبلى عسايلج المكنسة ، أُلقي في الطريق أو استخدم في أحقر الأغراض .

على فراش الموت

بقلم

سير ريتشارد استيل Sir Richard Steele

١٦٧٢ — ١٧٢٩

[ولد في دبلن عاصمة إيرلنده ، وتخرج في جامعة أكسفورد . وفي معاهد التعليم توثقت روابط الصداقة بينه وبين زميله أدسن ، وهي الصداقة التي دامت طوال حياتهما ، وأثمرت خير الثمار الأدبية . وأول ما كتب قصيدة يرثي بها الملكة ميري ، وله أربع مسرحيات تسرى فيها كلها الروح الدينية ، والتفاني في أداء الواجب . وهو أول من ابتدع المقالات الدورية في جريدته التي سماها المُحَدِّث The Tattler ثم في جريدتي الناظر The Spectator والحارس The Guardian وعدة جرائد أخرى . وكان يعاونه فيها كلها زميله أدسن . وانتخب استيل عضواً في البرلمان لكن لهجته الحادة أغضبت حزب المحافظين فأخرج منه . ولما عاد حزب الأحرار إلى تولى زمام السلطة عُيِّن في عدة مناصب كبيرة ومنح لقب فارس .

ويرجع إليه هو وزميله أدسن الفضل فيما بلغته المقالة الأدبية الدورية من كمال لم ترق إليه قبلهما ولم تتجاوزه بعدهما . ومن ذلك الحين أصبح هذا النوع من الأدب محبباً إلى القراء منتشراً بينهم ، ولا يزال كذلك حتى الآن] .

كنت في صباح اليوم أتمشى في حجرتي وأنا منشراح الصدر مستبشر ،
 وإذا بعربة تقف عند باب الدار وينزل منها شاب في الخامسة عشرة من
 عمره ، نظرت إليه فعرفته أ كبر أبناء صديق لي حميم ، هو الذي تحدثت
 عنه في أعداد هذه المجلة . ولقد سررت لرؤية هذا الشاب ، لأن صداقتي
 لوالده بدأت عند ما كان شبيهاً به وفي مثل سنه . وأقبل الشاب عليّ
 وأمسك يدي وأخذ يميكي وينتحب . وأثر فيّ هذا المنظر وآلم قلبي فسألته
 من فوري : « كيف حال أبيك يا ولدي ؟ » . وهم الشاب أن يحميني ولكنه
 لم يزد علي قوله « أمي . . . » وخنقته العبرات فعمدت لسانه ، ونزلت معه
 إلى حيث كانت العربة ، وعلمت منه بعد مشقة أن أمه تحتضر ، وأنه
 ترك القسيس إلى جوارها ، وجاءني ليدعوني للذهاب إلى والده ، لأنه يخشى
 أن يقضى هو الآخر نحوه إذا لم أسرع إليه لأشاركه فيادهمه . ولقد كان من
 شأن حصافة هذا الشاب الذي هداه عقله إلى الحجيء إلى من نفسه ،
 وما أظهره نحو أبيه من عطف وحنان ، أن يغلباني على أمرى لولا أنني
 غالبت شعوري واستبقيت قوتي لأؤدي بها ما يجب علي لصديق . ولم يسعني
 وأنا بجانب الشاب في طريقنا إلى داره إلا أن أفكر في أخلاق هذه السيدة
 الصالحة المحتضرة ، وفي هول الكارثة التي ستحل بزوجها حين يفقد من
 كانت عوناً له على الدهر ونوائبه ، ولم أدر هل في مقدور الرجل أن يتحمل
 الصدمة التي لا بد أن يقاسيها عند وفاة الزوجة وهو الذي لم يستطع حين
 زمرته في المرة الأخيرة أن يتحدث عن مرض أصابها من قبل دون
 حزن وجزع ؟

ووقفت بنا العربة عند الدار ، وكان أول من رأيت علي بابها القسيس ،

وقد جاء ليكون إلى جانب الزوجة في ساعتها الأخيرة ، وكنت قد تحدثت من قبل إلى هذا الرجل فأعجبني منه فضله وعلمه اللذان يحبيان الإنسان في الدين ، واتفق أن كان حديثنا في تلك المرة عن الموت ، فأفاض علينا من علمه ما أذهب خوفنا منه ، وجعله في نظرنا ونظر سائر المثقفين أمراً لا أهمية له قط ، وإن شئت فقل مرغوباً فيه . ولما قابلته عند باب الدار رأيت وجهه يتلألأ تلالؤ الحزن والرحمة معاً ، وينم عن صبر وعزيمة بلغا من القوة مبلغاً خفف كما علمت بعض آلام الميتة ، ولوعة من كان حولها من أصدقائها المقربين . وذهبت من فوري إلى الغرفة وقابلني عند بابها صديقي ، وكان قبل مجيئي قد هداً روعه قليلاً ، ولكنه حين رآني حول وجهه غنى وأجهش بالبكاء والعيول . وأثر هذا المنظر في أطفال الأسرة فبدت عليهم علامة الحزن كل منهم بما يناسب سنه وقوة إدراكه . فأما البنت الكبرى فقد فاضت عيناها بالدمع ولكنها لم تنقطع عن العناية بشئون أمها ، وأما سائر الأطفال فقد رأيتهم راكعين حول فراش الأم المحتضرة وكان أشد ما أمضني وأحزن قلبي منظر ولد صغير لا يعرف للبكاء سبباً ، ولكنه كان يبكي لأن أخواته كن يبكين . ولم يكن في الحجرة كلها أهدأ بالاً أو أكثر استسلاماً للقضاء من السيدة المحتضرة نفسها . ولما اقتربت من فراشها قالت لي بصوت خافت متقطع : « هذا فضل منك ، أوصيك خيراً بصديقك ، لا تفارقه » . وكانت قبل مجيئي قد ودعت زوجها وأطفالها الوداع الذي يليق بهذا الفراق الأبدي وبسيدة في مثل عقلها وأخلاقها .

وتقطعت نياط قلبي عند ما رأيت الزوج واقفاً إلى جانبها يغالب الحزن خشية أن يزيد من آلامها في الساعات الأخيرة ، والزوجة في هذه اللحظة

تحاول أن تخفي آلامها المبرحة لكيلا تزيد من ألم زوجها وكرهه . وظلت عيناها تنظران إليه لحظات قليلة بعد أن انعقد لسانها عن النطق ، ثم أطبقت جفניה وأسلمت روحها إلى بارئها . وعندئذ لم يحتمل صديق هول الكارثة فصرخ صرخة عالية ، وخر إلى جانب فراشها مغشياً عليه ^(١) .

وكان الرعب الذي تملك الأطفال حين ظنوا أن الموت قد اختطف أبويهم في لحظة واحدة مما يذيب أقسى القلوب ؛ لكنهم لم يلبثوا أن رأوا أباهم تعود إليه الحياة بعد أن نقلناه إلى حجرة ثانية ، واعتزمت أن أبقى إلى جانبه حتى تخف عنه حدة الفجعة ؛ وكنت أعرف عبث العزاء والمواساة بالألفاظ في مثل هذه الساعة ، ولذلك قنعت بالجلوس إلى جانبه ومشاطرة النكبة في سكون مؤتسماً في ذلك بما جاء في رسالة لكاتب قديم « سأحتفظ بنصيحتي إلى أعز أصدقائي حتى تهياً نفسه لقبولها بفعل عوامل ثلاثة أراها خير أنواع العلاج في مثل هذه الأحوال ، وتلك هي مر الزمان ، والاستسلام لحكم القضاء ، وامتلاء القلب بالأحزان » ^(٢) .

وإنى ليؤلنى أشد الألم أن أفكر في حال هذا الرجل الذي انتزع منه جزء من نفسه يفترقه في كل ساعة من ساعات حياته فلا يجده ؛ وما أشبهه في هذه الحال برجل قطعت منه ذراعه اليمنى ، ولكنه يهيم في كل لحظة أن يمدّها لقضاء شئونه بها . فهو في بيته ، وأمام مائدته ، وفي عزلته ، وفي صحبته الناس ، لا يحس بأنه كما كان من قبل ؛ وهو لا يستمتع بالملذات والمسررات

(١) إلى هنا ينتهي ما كتبه استيل من هذا المقال ، وأما الباقي منه فقد كتبه زميله أدسن .

(٢) الفيلسوف سنكا Seneca .

التي كان يحجبها إلى قلبه اشتراكها فيها معه ؛ وإذا رأى أحب الأشياء إليه ذكر من كانت تشاركه فيها . ولقد أجاد الشاعر العظيم « ملّتن » وصف هذا الشعور ، شعور اللذة المضاعفة بما نستمتع به في صحبة من نحب ، وذلك عند ما صور حواء في الجنة عاجزة عن أن تستمتع بما حولها من جمال حين لا يكون آدم إلى جانبها يشترك معها فيه فيزيده بهجة ويزيدها غبطة .

جبل المصائب

بقلم

جوزف أدسن Joseph Addison

١٦٧٢ — ١٧١٩

[كان أبوه وجده قسيسين ، وكانت دراسته أكثر انتظاماً من دراسة زميله استيل . وتخرج في كلية الملكة Queen's College بأ كسفردي سن الخامسة عشرة ، وكتب وهو طالب شعراً بالإنجليزية واللاتينية ، ودرس شعراء الرومان الأقدمين دراسة عميقة ، وكانت الصحافة وقتئذ قد أصبحت أداة عظيمة الأثر في الرأي العام ، وكان زعماء حزب الأحرار قد شرعوا يستخدمون الشبان ذوي المواهب الأدبية في المناصب العامة ، وتكشفت لهم مواهب أدسن الأدبية فرتبوا له معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه ليمد نفسه للحياة العامة ، فسافر إلى أوروبا وأقام فترة من الزمن في فرنسا ، ثم انتقل منها إلى إيطاليا وألمانيا وهولندا ، وعاد إلى إنجلترا في عام ١٧٠٣ ، وكتب قصيدة شعرية ، وقصة عن رحلته ، ومسرحية غنائية ، وبعض مسرحيات ، أحسنها كلها مأساة كيتو Cato ، ولكن شهرته تقوم على مقالاته الأدبية التي كان يكتبها في جرائد المحدث والناظر والحارس « The Guardian » ، « The Spectator » ، « The Tattler » .

ولما حانت ساعة وفاة أدسن أرسل إلى ريبه لورد وروك Warwick

وقال له : « لقد أرسلت إليك لترى كيف يموت المسيحي المؤمن » ودفن في مقبرة العطاء في وستمنستر .

وكثيراً ما يوازن الأدباء الإنجليز بين أسلوب أدسن وأستيل ؛ وهم مجمعون على أن أسلوب أدسن أسلس وأصح ، وأنه هو أكثر من صاحبه عناية بالأمور الدينية ، والموضوعات الأخلاقية ، لكن أستيل أكثر من صاحبه علماً بشئون الناس على اختلاف طبقاتهم [.

٨

من حكم سقراط الماثورة أن مصائب الناس كلهم إذا جمعت ثم وزعت بينهم بالتساوي لرأى الذين يظنون أنفسهم أبأس خلق الله جميعاً أن ما يعانونه الآن منها أقل مما يصيبهم بعد هذا التقسيم الجديد .

ولقد جلست يوما في حجرتي على مقعد ذى متكأ أفكر في هذا الموضوع ، فأخذتني سنة من النوم ، وخيل إلى فجأة أن چتر رب الأرباب قد أذن في الناس أن يحمل كل واحد منهم أحزانه ومصائبه ، ويلقى بها على كومة عنده ليستبدل بها فيما بعد مصيبة غيره . وأعدت ساحة من الأرض متسعة ليلقى فيها كل واحد مصيبته ، واتخذت مكاناً في وسطها . ولشد ما سررت عند ما رأيت الناس جميعاً مقبلين بعضهم في إثر بعض ، ورأيت كلا منهم يلقي حملة ، حتى تجمع من المصائب كلها في وقت قصير جبل شامخ علت رؤوسه فوق السحب .

وكان ممن رأيت سيدة نحيفة حمة النشاط ، تمسك بإحدى يديها مجهرًا زجاجيًا ، وترتدى ثوباً فضفاضاً مهفهفًا ، طرزت عليه عدة صور من الأشباح والشياطين ، إذا هبت عليها الريح تشككت بالآلاف من الأشكال الغريبة

المختلفة . وكان في نظراتها شيء من الاضطراب والقلق ، وسألت عن اسمها فقيل إنه « الوهم » . وكانت تقود كل شخص إلى مكانه الذي أعد له بعد أن تساعد على حزم مصيبتة ووضعها على كتفيه . وكاد قلبي يذوب أسي عند ما رأيت بنى حنسى يرحلون تحت أعباء ما يحملونه من البلايا ، وشاهدت ما تراكم أُمى منها .

لكننى رأيت أيضاً عدداً من الأشخاص كانوا موضع تسليية لى . فقد شاهدت واحداً من هؤلاء يعنى أشد العناية بإخفاء حزمة تحت ثوب مزر كش ، فلما ألقاها على الكومة تبينت أنها الفقر ، ورأيت آخر يلهث من التعب ثم يلقى حملة عن عاتقه فإذا به زوجته .

وكان بينهم عدد كبير من العشاق ينوون بأحمال غريبة من السهام واللهيب ؛ وأغرب ما رأيته من أمر هؤلاء أنهم ، وإن كانوا يتحسرون حتى لتكاد نياط قلوبهم تنقطع من ثقل ما يحملون ، إذا وصلوا إلى الكومة لا تطاوعهم نفوسهم بإلقاء مصائبهم عليها ، فقد كانوا يبدلون بعض الجهود الضئيلة لإلقائها عن عاتقهم ، ثم يهزون رؤوسهم ويعودون أدراجهم مثقلين بها كما كانوا من قبل . ورأيت جماعة كبيرة من العجائز يلقين غضون وجوههن ، وعددا من الفتيات يتخلصن من بشهرتهن السمراء ، ورأيت أكواماً عالية من الأنوف الحمراء ، والشفاه الغليظة ، والأسنان الصدنة . والحق أنى دهشت حين رأيت أن الجزء الأكبر من الجبل قد تكون من العيوب الجسمية دون غيرها . وقد رأيت فيمن رأيت شخصاً مقبلاً نحو الجبل يحمل بضاعة أكبر كثيراً مما يحمله غيره ، فلما اقترب منى وجدتها حدة طبيعية ، وألقاها عن كاهله فوق كومة البلايا البشرية

وهو فرح مغتبط . وكان مما شاهدته أيضاً أنواع لا تحصى من العلل والأسقام وإن كنت قد تبينت أن كثيراً منها أسقام وهمية . ولفت نظري بنوع خاص حزمة صغيرة مكونة من خليط من جميع الأوجاع التي تصيب الطبيعة البشرية ، يمسك بها عدد كبير من عليية القوم ويطلقون عليها اسم الحقد . على أن الذي أثار عجبى أكثر من كل ما سبق أن أحداً من الناس لم يلق برذيلة خلقية أو سخافة عقلية واحدة في هذه السكومة كلها . وقد كنت أعتقد أن كل إنسان سيغتنم هذه الفرصة المواتية ليتخلص من غيظه وحنقه وتحامله ونقصه ، وأسباب ضعفه الخلق .

واسترعى نظري بنوع خاص شخص رقيق مستهتر ، لم أشك في أنه جاء مثقلاً بجرائمه ، فلما فحست عن حزمته عرفت أنه لم يلق عنه جرائمه بل ألقى ذاكرته ، ثم جاء بعده رجل حقير وضعي ألقى عن كتفه تواضعه بدل أن يلقى جهله .

ولما ألقى جميع الناس أمثالهم ، ورأى الوهم الذي كان طوال الوقت مجداً في عمله أنى لم أحرك ساكناً بل اكتفيت بالنظر والتأمل اقتراب منى . فلما أقبل بدا على بعض الاضطراب ، ولكنه وضع مجهره أمام عيني ، ولم أكده أبصر فيه صورة وجهي حتى راعني قصره المتناهي الذي بدا لي وقتئذ في أبشع صورة . وكان مما ساءني فيه الزيادة المفرطة في عرض ملاحي ، فألقيته عنى كما يلقى القناع . واتفق لحسن حظي أن كان إلى جانبي شخص ألقى عنه وجهه منذ لحظات قليلة لأنه رآه مفرطاً في الطول . والحق أن وجهه هذا قد بلغ من الطول حداً ينجل منه صاحبه ، فقد كان ذقنه وحده أطول من وجهي كله وبذلك أتاحت لنا نحن الاثنين فيما بعد فرصة ثمينة لإصلاح حالنا .

وسرني كل السرور أن أرى الناس كلهم قد تخلصوا من أحزانهم وآلامهم ، وإن كنا في الوقت نفسه قد تبينا ونحن واقفون حول الكومة نتأمل المواد المختلفة التي تتألف منها أنه لا يكاد يوجد إنسان في الجمع الحاشد من حولها إلا رأى فيها ما يعتقد أنه من نعم الحياة وملاذها ، وعجب من أصحابها كيف يعتقدون أنها من أسباب بلاياهم وأحزانهم .

وبينا نحن نُنعم النظر في هذا الخليط من البلايا ، وهذه الفوضى من المصائب ، إذا بجيتر يصدر أمراً ثانياً يبيح فيه إلى كل إنسان أن يستبدل بمصيبته مصيبة سواه ، وأن يعود إلى داره بما يقع عليه اختياره من الكومة التي أمامه .

وحسبي أن أنقل إلى جمهور القراء بعض ما استرعى نظري في ذلك الوقت . لقد رأيت رجلاً أشيب الشعر طاعناً في السن ، يشكو المغص ويريد وارثاً لثروته الكبيرة ، يلقي عنه مغصه ويختطف ابناً عاقاً ألقاه أبوه على الكومة وهو غاضب عليه ، ولم يمض على اختطافه ربع ساعة حتى أمسك الولد بلحية الرجل المسن وكاد يهشم رأسه ، فلما قابل الرجل والدَ هذا الفتى توسل إليه أن يأخذ منه ولده ويرد إليه مغصه ، ولكن أحدهما لم يكن في مقدوره أن يرد إلى الآخر ما أخذه باختياره . ورأيت أيضاً عبداً مقيداً بالسلاسل وقد ألقى عنه أغلاله واستبدل بها آلام المفاصل ، ولكنه ما كاد يبرح مكانه حتى أخذ يُلوّى وجهه ويقطب جبينه ، وكان في وسع كل من رآه أن يدرك لساعته أنه لم يكن الرابع في هذه الصفقة . وكان من الطريف أن أرى الصفقات التي تمت واستبدل فيها المرض بالفقر والجوع بالجشع والقلق بالألم .

وانهمكت النساء فيما ينهن في استبدال معارفهن ، فقد رأيت واحدة
منهن استبدلت بظهرها الأحذب خصلة من الشعر الأشيب ، وشاهدت
أخرى تستعويض عن وسطها القصير بكتفين مستديرتين ، ولكننى لم أر
واحدة منهن إلا وقد وجدت أن العيب الجديد شر من عيبها القديم . ولم
يكن هذا خاصاً بالنساء وحدهن ، بل إن كل إنسان في هذا الجمع الحاشد
تبين بعد قليل أن الكارثة التى اختارها لنفسه أشد وقعاً عليه من كارثته
الأولى التى أراد أن يتخلص منها . ولعل منشأ هذا أن الكوارث التى تنزل
بنا تلائم قوانا وتناسب معها ، أو لعلنا وقد ألفنا ما يحل بنا من الكوارث
أصبحنا أقدر على تحملها والصبر عليها . ذلك ما لا أستطيع أن أقطع
فيه برأى .

ولست أريد أن أغفل نصيبى الخاص فى هذه المجازفة الخطيرة ، فلم يكد
صديق ذو الوجه الطويل يستبدل به وجهى حتى بدا شخصاً غريباً مضحكاً ،
لم أتمالك حين رأيته أن أضحك من نفسى ضحكا توارى منه وجهى خجلاً .
وآلمت هذه السخرية الرجل المسكين فاستحى مما فعل . أما أنا فلم أجد أنى
ظفرت بشيء كثير ، ذلك أنى أحبيت أن ألمس يمدى جهتى فأخطأت
مكانها ووقعت يدى على شفتى العليا . كذلك كان أنفى شديد البروز فلطمته
بيدى لطمتين أو ثلاثاً حين أردت أن أضعها على مكان آخر من وجهى .
ورأيت إلى جانبى رجلين آخرين لم تكن حالهما بأحسن من حالى ، فقد
استبدل كلاهما بساقيه الغليظتين ساقين أخريين نحيلتين كالعصوين ؛ وبدا
أحدهما كأنه يسير على مشاءتين ، فقد استطال فى الهواء أكثر من طوله
الطبيعى حتى كان رأسه يدور كما هبت عليه الريح . وأما الثانى فكان إذا

أراد المشى دار حول نفسه دورات سمجة مضحكة حتى بدا وكأنه لا يعرف كيف يسير إلى الأمام على ساقيه الجديدتين . ورأيته رجلاً ظريفاً فوضعت عصاى فى الأرض على بعد منه قليل وأخبرته أنى أراهنه بزجاجة من النبيذ على أنه لا يستطيع أن يبلغها فى ربع ساعة مع أنى رسمت له على الأرض خطاً مستقيماً يسير عليه .

ووزعت الكومة آخر الأمر بين الرجال والنساء ، فكان منظرهم كلهم وهم يسرون مثقلين بأعبائهم الجديدة مما يدعو إلى الأسى والرحمة ؛ وضح السهل كله بأصوات الشكوى والتذمر والألم والأسف ، وأخذت چيتر الرفة بهؤلاء الأناسى المساكين فأذن فيهم مرة أخرى أن ألجوا عنكم أحمالكم وليأخذ كل منكم حظه الأول . ولم يكد هذا الأمر يصدر إليهم حتى هرعوا إلى الكومة يلقون عليها أحمالهم الجديدة ووجوههم تهمل بشراً . وأمر الشبح الذى أضلهم هذا الضلال البعيد أن يختفى عن الأنظار ، وجاءت بدله إلهة لا وجه للشبه بينها وبينه ، كانت خطواتها ثابتة ، ونظراتها حادة مبهجة ، وكانت ترفع وجهها إلى السماء بين الفينة والفينة ، وتنظر إلى وجه چيتر ، وعرفت أن اسمها الصبر . ولم تكد تقف بجوار جبل المصائب حتى صغر حجمه فلم يزد على ثلث ما كان عليه من قبل ، ثم أعادت إلى كل إنسان مصيبتة الأولى ، وعلمته كيف يحملها على أحسن وجه يستطيع ، فحملها وسار بها راضياً يحمد ربه على أنه لم يترك شأنه ليختار لنفسه الشر الذى يريده .

ذلك هو الحلم الذى رأيت ، وهو يهذب الأخلاق من عدة وجوه ؛

وكان مما أفدته أنا منه ألا أحزن على ما يصيبني من الآلام ، أو أحسد غيري
على ما يناله من أسباب السعادة ، لأن أخذاً من الناس لا يستطيع أن يحكم
حكماً صحيحاً على آلام جاره ؛ ولهذا السبب عينه قررت ألا أستخف
بشكايات غيري ، وأن أنظر إلى مصائب بني جنسي نظرة عطف عليهم
ورحمة بهم .

رؤيا مرزا

بقلم
چوزف أدسن

٩

وقعت في يدى حين كنت في مدينة القاهرة الكبرى عدة مخطوطات شرقية لا أزال أحتفظ بها إلى الآن ، ومن بين هذه المخطوطات مخطوط كتب عليه « رؤى مرزا » ، قرأته من أوله إلى آخره بشغف عظيم ، وسأعرض بعض فصوله على القراء حين لا أجد لدى ما أسليهم به غيرها ، وسأبدأ بعرض الرؤيا الأولى مترجمة ترجمة حرفية فيما يلي :

« في اليوم الخامس من الشهر القمري ، وهو اليوم الذى اعتدت أن أعظمه جريا على سنة آبائى ، توضأت وصليت الفجر ، ثم صعدت تلال بغداد العالية لأقضى بقية اليوم فى العزلة والعبادة . ووقفت على قمة الجبل أستنشق الهواء النقي ، وأفكر فى قيمة الحياة البشرية وما تنطوى عليه من زهو وغرور ، وتتابع الأفكار فى ذهنى فقلت فى نفسى إن الإنسان خيال والحياة حلم . وبينما كانت هذه الأفكار تطوف بعقلى نظرت بعينى إلى صخرة عالية قريبة منى ، فرأيت عليها شبحاً فى ملابس راع بيده آلة موسيقية غريبة . ولما وقعت عيني عليه وضع الآلة فى فمه وأخذ ينفخ فيها ، فسمعت لها أصواتاً عذبة مختلفة النغمات لم أسمع مثلها من قبل . وقد أذكرتني حين سمعتها بالنغمات التى تطرب بها أرواح الصالحين أول ما يدخلون الجنة لتمحو من

نفوسهم ما لاقت من الآلام وتهيبهم للاستمتاع بالنعيم في الدار الآخرة .
وكاد قلبي يذوب من شدة الطرب حين سمعت هذه الأصوات .

« وكان قد تراءى إلى أن هذه الصخرة مأوى جنى ، وأن كثيرين ممن
صروا بها سمعوا هذه النفثات العذبة ، وإن كان أحد منهم لم ير صاحبها
رأى العين . ولما هيج الجنى أفكارى بهذه النفثات الحلوة ، وشوقنى
إلى سماع حديثه ، ورأى أنظر إليه في حيرة ودهشة ، أشار إلى يديه أن
أقترب من المكان الذى يجلس فيه . فأطعت وأنا أظهر له من الإجلال
ما يليق بأمثاله من الخلائق العليا . وكانت النفثات الساحرة التى سمعتها قد
أثرت فى ، فركعت بين يديه وأخذت أبكى من شدة التأثر ، فتبسم وأظهر
من البشاشة والرافة ما أزال دهشتى وبدد الخوف الذى كان يلازمنى وأنا
أقترب من مجلسه . ثم رفعنى عن الأرض وأمسك بيدي وقال لى :
« لقد سمعت يا مرزا حديثك لنفسك فاتبعنى » .

« وقادنى الجنى إلى أعلى قمم الصخرة ، وأمرنى أن أفق عليها وأنظر نحو
الشرق وأحدثه عما أرى ، فقلت له إني أرى واديا عظيما ، وأرى سيلا جارفا
من الماء يتدفق فيه ، فقال : « إن الوادى الذى تراه هو وادى الشقاء ، وإن
التيار الذى يجرى فيه هو تيار الأبدية العظيم » . وسألته : « لم يبدأ التيار
من ضباب كثيف فى إحدى الناحيتين ، ثم يحتفى فى ضباب كثيف مثله
فى الناحية الأخرى ؟ » فأجابنى : « إن الذى تراه هو ذلك الجزء من الأبدية
الذى يسمونه الزمان ، والذى يقاس بحركة الشمس ، ويمتد من بداية العالم
إلى نهايته . ولكن انظر إلى هذا البحر الذى يحدده الظلام من جانبيه ،
وحدثنى عما تستطيع أن تراه » فقلت له : « إني أرى جسرا قائما فى وسط

المجرى» فأجاب: « وهذا الجسر هو الحياة البشرية فانظر إليه بامعان» فنظرت إليه على مهل فوجدته يتألف من سبعين عقدا صحيحا، ومن عدد آخر من العقود المحطمة ، إذا أضيفت إلى العقود السابقة بلغ عددها مائة أو نحوها . وبينما أنا أحصى العقود قال لى الجنى إن الجسر كان فى أول الأمر يتألف من ألف عقد ، ولكن فيضنا عظميا جرفه وتركه محطما بالحالة التى أراه عليها ، ثم قال: « والآن أريد منك أن تخبرنى عما تراه فوقه » ، فأجبته : « إنى أرى جماعات من الناس يمرون عليه ، وأرى سحابة سوداء معلقة فوق كل طرف من طرفيه » . ثم أنعمت النظر فوجدت عددا من المارة يهرون من فوقه إلى السيل الجارف الذى يجرى من تحته ، وشاهدت بعد ذلك عددا لا يحصى من الأبواب السرية مخفية فى بناءه ، لا يكاد المارة يطلونها بأقدامهم حتى يتردون من خلالها فى التيار الجارف ويختفون على الأثر . وتكثر هذه الشراك الخفية عند مدخل الجسر ، ولهذا فإن الناس لا يكادون يخرجون من بين السحابة القائمة حتى يتردى الكثيرون منهم فيها ، ثم يقل عددها فى الوسط ولكنها تزداد وتتقارب عند نهاية العقود السليمة .

« ورأيت بعض الناس — ولكنهم قليلو العدد جداً — يستمرون فى السير بخطى عرجاء على العقود المهشمة ، ولكنهم يتساقطون عنها واحدا فى إثر واحد ، وقد أعياهم التعب وخارت قواهم من طول الطريق .

« وقضيت بعض الوقت أتأمل هذا البناء العجيب وما رأيته عليه من مناظر مختلفة ، وكان مما أحزننى أن أرى عددا من الناس يهرون فجأة وسط أفراحهم ومرحهم ، ويتشبثون بكل ما يجدونه فى طريقهم ، يحاولون أن

ينجوا به أنفسهم من الهلاك . ورأيت جماعة يرنون بأبصارهم نحو السماء كأنهم يفكرون فيما يفعلون ، وبينما هم في تفكيرهم إذا بهم يتعثرون فيسقطون . وكانت جموع كثيرة من الناس يجهدون أنفسهم في الجرى وراء فقاعات في الطريق تبرق وترقص أمام أعينهم ، حتى إذا ظنوا أنفسهم على قيد شعرة منها زلت أقدامهم وهووا في اليقظة ، وأبصرت في هذا الخضم خلائق بأيديهم سيوف يغدون بها فوق الجسر ويروحون ، يدفعون ببعض الناس في الأبواب المسحورة التي لم تكن في طريقهم ، والتي كان في وسعهم أن ينجوا منها لو لم يدفعوا إليها .

« ورآني الجنى أطيل التأمل في هذا المنظر الحزن فقال لي إني قد شغلت نفسي به أكثر مما ينبغي ، وأمرني أن أحول نظري عن الجسر ، وأن أخبره هل أرى شيئاً غيره لا أفهمه ، فأطعت أمره ونظرت حيث أمرني ، ثم سألته : « وما هذه الأسراب العظيمة من الطير التي لا تقفأ تحوم فوق الجسر ، ثم تنقض عليه بين الفينة والفينة ؟ إني أرى نسورا نهمة وطيورا أخرى جارحة ، وأرى بينها غلمانا صغارا ذوى أجنحة تنزل جماعات فوق العقود الوسطى » فأجابني الجنى : « إن هذه هي الحسد والبخل والخرافات واليأس والحب وأمثالها من الهموم والانفعالات التي تكتظ بها الحياة البشرية » .

« وسمعت هذا فأمضيت وقتاً في عضدي ، وقلت في نفسي : ما أتعس الإنسان ! لقد خلق عبثاً ! إنه يسلم نفسه للبؤس والموت ، ويعذب في حياته ، ويظل كذلك حتى يبتلعه الموت » وأشفق الجنى عليّ فأمرني أن أحول نظري عن هذا المنظر المؤلم ، وقال لي : « لا تنظر بعد الآن إلى الإنسان في المرحلة الأولى من حياته حيث يبدأ مسيره نحو الأبدية ، ولكن انظر

إلى هذا الضباب الذى تهوى إليه تلك الجماعات الكثيرة يحملها إليه السيل الجارف . فحولت نظرى حيث أمرنى ، ولست أدرى هل أمد الجنى الطيب عينيَّ بقوة من عنده فوق قوتهما ، أو بدد بعض الضباب الذى لم تكن تستطيع العين أن تنفذ فيه من قبل لكثافته ، ولكننى رأيت الوادى ينفرج عند طرفه البعيد حتى يصبح بحرا من الماء لا شواطئ له ، وفى وسطه صخرة عظيمة من الحجر الصلب مقسمة قسمين متساويين ، ورأيت السحب لا تزال تحيم فوق أحد النصفين ، وقد بلغ من كثافتها أن حجبت عنى كل شيء فيه . أما نصفه الثانى فقد بدا لى بحرا محيطا عظيما تتخلله جزائر لا تحصى تغطيها أشجار الفاكهة والأزهار ، وتتخللها بحار صافية ذات مياه متلاثلة . واستطعت أن أرى فيها أناسى فى ثياب جميلة على رؤوسهم تيجان من الورود والرياحين ، يغدون ويروحون بين الأشجار والأزهار ، أو يضطجعون بجوار عيون الماء أو فى أحواض الزهر . وسمعت أصواتا متناسقة متناغمة من غناء الطير وخرير الماء وحديث آدميين وعزف الآلات الموسيقية . ولقد سرنى وأثلج صدرى أن أرى هذا المنظر البهيج ، وكم تمنيت لو أن لى جناحى نسر أطيّر بهما إلى هذه الأماكن السعيدة ، ولكن الجنى أكد لى أن لا سبيل إلى الوصول إليها إلا من خلال أبواب الموت التى أراها تتفتح على الجسر فى كل ساعة ، وقال : « أما الجزائر التى تراها أمامك خضراء ناضرة ، والتى تنتشر على وجه البحر المحيط كله إلى أبعد حدود البصر فهى أكثر عددا من رمال الصحراء ، وهناك الآف منها من ورائها لا تدركها العين ولا يحيط بها الوهم . وتلك هى قصور الصالحين من الناس يخلدون فيها بعد الموت ، وهم يوزعون عليها حسب ما يمتازون

به من الفضائل ، ويتمتعون فيها بأنواع من النعيم مختلفة ، ودرجات منه متفاوتة تتناسب مع أمانى من يقيمون فيها وفضائلهم ، وكل جزيرة منها جنة أعدت لساكنيها . أليست هذه يا مرزا مساكن جديرة بأن يسمى إليها بنو الإنسان ويحرصوا عليها ؟ وهل تكون الحياة تعسة إذا هيأت للناس الفرص لنيل هذا الجزاء ؟ وهل يليق بالإنسان أن يخشى الموت وهو السبيل إلى نيل هذه السعادة الأبدية ؟ لا تظن يا مرزا أن الإنسان خلق عبثا ، وهو الذى أُعِدَّ له هذا النعيم الخالد . ونظرت وأنا منشراح الصدر إلى هذه الجزائر السعيدة ثم قلت للجنى : « أتوصل إليك أن تطلعنى على الأسرار الكامنة تحت هذه السحب القاتمة التى تغطى صفحة البحر المحيط وراء الصخرة الجامدة » . وصمت الجنى ولم يُجِر جوابا ، فالتفت حولى لأعيد عليه السؤال ، ولكنى لم أجده فى موضعه ، ونظرت مرة أخرى إلى المنظر الذى كان أمانى ، والذى ظلمت أتأمله زمنا طويلا ، فلم أر السيل الجارف ، ولا الجسر ذا العقود ، ولا الجزائر الخضراء الجميلة ، لم أر شيئا من هذا كله بل رأيت فى مكانه وادى بغداد الطويل الأجرد ، يرمى على جوانبه البقر والضأن والحمل .

تجملد الألفاظ فى نوقا زمبلا^(١)

بقلم
چوزف أوسن

١٠

خبر ما أستمع به من الكتب الأسفار ، وبخاصة ما كان منها
وصفاً للأقطار النائية ، لأنه يتيح لكتبتها فرصة إظهار مواهبه من غير أن
يعرض نفسه لخطر النقد والمعارضة . وقد امتاز مواطننا سير جون مندقيل
John Mandeville^(٢) عن جميع كتاب الرحلات بعبقريته العظيمة
وقوة ابتكاره المدهشة ؛ ويليه فى هذا فردند مندر بنتو Ferdinand
Mendez Pinto^(٣) وهو كاتب كثير الأسفار واسع الخيال . ولا تقل
دهشة الإنسان عند ما يقرأ رحلات هذين الكتبتين العبقريين عن دهشته
من أسفار أوديسيس Odysseus فى أشعار هوميروس .

(١) جزيرة فى المحيط الجامد الشمالى فى أقصى شمال أوربا .

(٢) سير جون مندقيل . Sir John Mandeville . رحلة وكاتب من كتاب
القرن الرابع عشر ، له كتاب فى الرحلات كتبه بالفرنسية ، يقول فيه إنه سافر من
إنجلترا فى عام ١٣٢٢ إلى بلاد الترك والأرمن والفرس والشام وجزيرة العرب ومصر
ولوبيا والحيشة وبلاد العراق والهند . وترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية فى أوائل
القرن الخامس عشر كاتب غير معروف . وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة .

(٣) فرنسيسكو مندر بنتو . Francisco Mendes Pinto . رحلة برنغالى عاش
فى القرن السادس عشر طاف ببلاد الصين واليابان وكتب وصفاً لرحلاته . وهذا هو
اسمه الصحيح وإن كان أوسن يسميه فردند .

ولقد وقع في يدي بطريق المصادفة عدة مخطوطات لهذين الكاتبين العظيمين حوت من العجائب أعظم مما حوته كتبهما الأخرى التي نشرها على الجمهور ؛ ولولا ثقة الناس بصدق كاتبها لعدوها من المستحيلات . ويخيل إليّ أنهما لم ينشرا هذه الكتب كما نشرنا غيرها خشية أن يظن الناس أن ما حوته من الأخبار الغريبة كله من نسج الخيال ؛ وذلك احتراص كان له ما يبرره في الوقت الذي لم تكن فيه ثقة الناس بأقوالها قوية كما هي في هذه الأيام ^(١) . والآن وقد زال هذا السبب فإني سأهدي إلى قرأى قطعاً من هذه المخطوطات العجيبة حين يعوزني غيرها من الموضوعات .

وسأبدأ بعدد اليوم فأقدم لهم فيه قطعة ممتازة من يوميات سير جون مندقيل ، يصف فيها هذا العالم الجليل كيف كانت بعض أحاديثه القصيرة في نوحا زمبلا تتجمد ثم تسيح .

ولست أحب أن أطيل انتظار القراء ، ولذلك سأنقل إليهم ما كتبه الكاتب القدير ، مجيزاً لنفسى أن أوفق بين أسلوبه وأسلوب اللغة الحديث . قال الكاتب :

« هبت علينا عاصفة هوجاء فرقتنا عند الدرجة الثالثة والسبعين من درجات العرض الشمالية ، وقذفت بسفينتنا هي وسفينة هولندية وأخرى فرنسية إلى خليج أمين في نوحا زمبلا ، ففرلنا إلى البر لنصلح من شأن مركبنا ونترود بحاجتنا من الطعام والشراب . وأقام بحّارة كل سفينة لأنفسهم بيتاً من الطين والأغصان على مسافات متقاربة يقيمون فيه جميعاً ، ويتقون به غائلة البرد ، وهو في هذا الإقليم شديد لا يطاق . وسرعان ما تبيننا أن حديثنا تضيع منه بعض الألفاظ ، وأن أصواتنا لا تصل إلى

(١) هذا بالطبع قد لاذع لهذين الكاتبين .

أبعد من مترين في الفضاء إذا كنا نتحدث ونحن جلوس بجانب النار . وبعد تفكير طويل أدركت أن الألفاظ تتجمد في الهواء قبل أن تصل إلى آذان السامعين ، وأكّد ذلك لدى أن الجماعة كلها أصابها البكم أو بالأحرى أصابها الصمم ، حينما اشتد البرد ، وأقول الصمم لا البكم لأنى عرفت بعدئذ أن كل واحد منا كان يشعر أنه يتحدث ، كما كان يتحدث من قبل ، ولكن الألفاظ كانت لا تكاد تخرج من أفواهنا حتى تتجمد وتبقى كذلك في الهواء . وكان منظرنا غريباً مؤلماً حين تتحرك شفاهنا ، وتنفث أفواهنا ، وتنحن رؤوسنا ، ويتحدث كل منا ، ثم لا يستمع أحداً صوت صاحبه . فكنت ترى الملاح الذى يستطيع أن يرسل صوته في عرض البحر إلى سفينة على بعد فرسخ كامل ، يلوّح بيديه ، ويفغرفاه ، ويزفر من كل رئتيه ، ولكنه عبثاً يحاول إسماع صوته إلى زملائه ، فلم يكن ثمة لفظ ولا صوت يخرج من فيه .

« وظللنا على هذه الحال المحزنة ثلاثة أسابيع كاملة ، ثم تغير مهب الريح ، ودفع الهواء قليلاً ، فامتلاً بيتنا شيئاً فشيئاً بقطقة وفرقة عرفت فيما بعد أنها ناشئة من تكسر الحروف الهجائية فوق رؤوسنا ؛ وكثيراً ما اختلطت هذه الأصوات بصغير خفيف ناشئ من تكسر حرف السين ، وكان أول ما سمعته من الحديث المتصل نسيماً من الهمس الخافت مكون من مادة رقيقة لطيفة جعلته يسيح قبل غيره في الريح الدفئة التى هبت وقتئذ على بيتنا ؛ وأعقب هذا أجزاء من كلمات ، ثم جاءت فى إثرها كلمات قصيرة ، وانتهى الأمر بأن سمعنا جملاً كاملة ساح بعضها قبل بعض حسب درجة تجمدها ؛ ولم نشعر إلا ونحن نسمع كل ما تحدثنا به فى الأسابيع الثلاثة التى ظللنا

فيها صامتين ، إذا كان لى أن أعبر عن حالنا بهذا التعبير .
« وكنا وقتئذ في الصباح الباكر ، ولكنى دهشت حين سمعت صوتاً يقول : « إننا الآن ياسير جون في منتصف الليل ، وقد آن أن يأوى الملاحون إلى فراشهم ليستريحوا » . وتبينت في هذا صوت الدليل ، ثم عدت إلى الماضى فاستنتجت أن الدليل قال لى هذه العبارة من بضعة أيام ، ولكننى لم أسمعها حتى دفى الهواء وساحت الألفاظ . وفى وسع القارى أن يتصور دهشة الملاحين العظيمة وهم يسمعون أنفسهم يتحدثون ، ولكن أحداً منهم لا يحرك لسانه أو يفتح فاه . وبيننا نحن فى هذه الدهشة إذا بى أسمع طائفة من اللعنات تنصب على بصوت أجش ، عرفت فيه صوت نائب الرئيس ، وهو شخص غصوب ظن أننى لا أسمع ما يقول ، فأخذ يصرخ فى وجهى ويكيل لى الشتائم لأننى كثيراً ما عاقبته على سوء أدبه ، وعنفته على فحش لفظه ، كلما التقيت به على ظهر المركب .

« ولما أوشكت هذه الجلبة على الانتهاء ، بدأت أنا الحديث ، بأن عرضت على الزملاء أن نزور بيت الهولنديين ، وكان على بعد ميل فى داخل الجزيرة . وترددت كثيراً قبل النطق بهذا الكلام لأننى كنت أخشى ألا يسمعه أحد كما كانت الحال من قبل . وسر الملاحون كثيراً عند ما تبينوا أنهم عادت إليهم قدرتهم على السماع ، وإن كان الخوف قد تملكهم جميعاً فى أثناء الحديث ، كما تملكنى أنا نفسى ، وأخذ كل منهم يجرب التحدث إلى نفسه ، قبل أن يتحدث إلى زميله .

« وعند ما وصلنا إلى منتصف الطريق سمعنا زئير دب ، ارتعنا له أول الأمر ، ولكن أحد الرفاق أخبرنا أن الدب ميت ، وأنه قُتل فى ذلك

المكان بعينه قبل أسبوعين في وقت اشتداد البرد ؛ وكذلك سمعنا غير بعيد من ذلك المكان نباح كلب مات من قبل .

« ثم وصلنا آخر الأمر إلى مكان الهولنديين ؛ ولما دخلنا منزلهم وجدناه ممتلئاً بأصوات شمعنا فيها رائحة النبيذ وغيره من الروائح الكريهة ، ولكن أحداً منا لم يفهم من هذه الأصوات شيئاً ، إلا خادمي ، وقد غضب أشد الغضب من بعض ما سمع ، وكان إرلنديا يفهم اللغة الهولندية ؛ فاستل سيفه ، ولكنه لم يعرف على من يقع الذنب فردّه مرة أخرى إلى غمده . وصدّعت رؤوسنا هذه الأصوات ، ولكنها لم تتجمع في كلمات إلا بعد نصف ساعة من قدومنا ؛ وفي رأيي أن منشأ هذا هو خشونة أصوات لغة الهولنديين وقسوتها ، وهي من أجل ذلك تحتاج إلى وقت كبير حتى تنصهر وتسمع على حقيقتها .

« وبعد أن حيانا الهولنديون أطيب تحية ، تركناهم وذهبنا لزيارة الفرنسيين ؛ وأراد هؤلاء أن يعوضوا ما فاتهم من سكون طوال الأسابيع الثلاثة الماضية ، فأخذوا يتجادلون ويتجادلون في جلبة وأصوات مختلفة ، وبسرعة لم أسمع مثلها قط في مجتمع آخر ، حتى في بلاد أولئك القوم أنفسهم .

وتبين لي أن لغتهم تكسرت وساحت عند أول هبوب الريح الدفئة ؛ وهنا عرفت خطأ وقعت فيه من قبل ؛ فقد كنت أظن أن الصوت لا يتجمد إلا إذا كان ملتقاً في هواء الزفير الذي يخرج معه ، ولكنني وجدت عكس هذا في بيت الفرنسيين ، إذ سمعت صوت رقص وعزف فوق رؤوسنا . وسألت عن مصدر هذا الصوت فقال لي أحدهم إنه

سيستمر أكثر من أسبوع آخر إذا ظل الجو دفيئاً ، لأنهم حين امتنع عليهم الحديث طلبوا إلى زميل لهم أن يضرب على آلة معه طول النهار ، وأخذوا هم يرقصون ، ليروحووا بذلك عن أنفسهم ، ويقضوا بهذه الطريقة وقتهم »

هذا ما يقوله سيرجون مندقيل ، وقد أضاف إليه كلاماً فلسفياً معقولاً يفسر به سبب تجمد الأصوات الموسيقية في أثناء البرد الشديد ، ولكنه شرح مطول سأضرب صفحاً عن ذكره ، وكل ما ألاحظه بشأنه أن المؤلف الكبير يدل بكثرة مقتبساته على أنه يجيد حفظ قصائد الشعراء الأقدمين ، وأن هذه القصائد سمت بخياله إلى ما فوق مستوى خيال المؤرخين ، وجملت عباراته وأسلوبه أعظم التجميل .

حركات المراوح

بقلم

چوزف أدسن

١١

لست أدري أيقصد كاتب هذا الخطاب أن يسخر من سيدات هذه الأيام ، أم يريد أن يعرض على القراء صورة صادقة من أدبهن ورقبهن ، أم أنه يقصد شيئاً غير هذا وذلك لم يخطر لي ببال ؟ ومهما يكن قصد الكاتب فإني سأعرض على القراء خطابه كما هو ، وأترك لهم أن يستدلوا منه على مقصده ؛ وها هو ذا خال من المقدمات والحواشي .

سيدي :

المراوح للنساء كالسيوف للرجال ، ككتاها سلاح فتاك ، ولكن ضحايا الأولى أكثر من ضحايا الثانية . وقد أردت أن أمسكن النساء من السيطرة على سلاحهن إلى أقصى حد ، فأنشأت لهذا الغرض معهداً لتدريب الفتيات على حركات المراوح ، حتى يراعين فيها أحدث الطرق المتبعة في بلاط الملوك في هذه الأيام . وتجتمع تلميذاتي لهذا الغرض مرتين في اليوم في البهو الكبير في معهدى ، وفيه أدربهن على طريقة استخدام سلاحهن بالعبارات الآتية :

حركن المراوح

افضن المراح

اقدفن المراح

ألقين المراح

استعدن المراح

هفهفن بالمراح

فاذا عنيت السيدة متوسطة الذكاء بمراعاة هذه الأوامر السهلة القصيرة وواظبت على حضور التدريب مدة لا تزيد على ستة أشهر ، استطاعت أن تكسب مروحتها كل ما تستطيع هذه الآلة الصغيرة الحديثة أن تتصف به من ضروب الرشاقة .

لكنني أحب أن أعطي قرائي فكرة صحيحة عن هذا التدريب ، ولذلك أستأذنهم في أن أشرحه لهم شرحاً وافياً مفصلاً . فأقول : إذا اصطف جيشى النسائي وأصبحت كل واحدة فيه مستعدة للعمل ، وسلاحها في يدها ، أمرتهن أن « يحركن المراح » ، وتمدن تحرك كل واحدة منهن مروحتها في اتجاهي ، وتصحب هذه الحركة ابتسامة لطيفة ثم تفرع بمروحتها السيدة المجاورة لها من جهة اليمين قرعاً خفيفاً ، وتمس بشفتيها طرف المروحة ، وتنزل يدها إلى جانبها بحركة سهلة خفيفة ، وتقف مستعدة لتلقى الأمر الثاني . وهي تفعل كل هذا ومروحتها مقفلة ، وتعلمه عادة في الأسبوع الأول .

وتأتى بعد ذلك حركة «فتح المروحة» . وتشمل هذه الحركة عدداً من الهزات والذبذبات الصغرى كما تشمل عدة محاولات تدريجية مقصودة لفتحها ، وعجزاً متعمداً متكرراً عن فتحها . وقلما يتقن النساء هذه الحركة في أقل من شهر كامل . وهذا الجزء من التدريب يسر النظارة أكثر من غيره . لأنه

يكشف لهم فجأة عن عدد كبير من صور آلهة الحب ، وتيجان الزهر ،
والطير والحيوان ، وأقواس قزح وأشباهاها من الصور الجميلة التي تظهر
كلها لأعينهم في هذه الحركة ، والتي تمسك كل سيدة بيدها واحدة منها .
ثم أصدر بعد ذلك أمرى التالى وهو « أطلقن المراوح » ، وعندئذ
تصدر منها فرقة عامة تسمعها على بعد عظيم إذا كانت الريح تهب نحوك .
وهذا الجزء من أصعب أجزاء التدريب ، ومع ذلك فإن في جيشى الآن من
السيدات من لم تكن تستطيع عند التحاقها به أن تحدث طلقة تسمع في
ركن الحجرة التي هي فيها ، وقد أصبح في مقدورها الآن أن تطلق مروحتها
بحيث يصدر عنها صوت لا يقل عن صوت المسدس . ولقد عنيت فوق هذا
بأن أدل النساء على الظروف التي يصح فيها قرع المراوح ، وذلك لكيلا
تقرعها الفتيات في غير الأماكن المطلوبة وفي غير الأوقات المستحبة . وقد
اخترعت أيضاً لهذا الغرض مروحة حُبِس في إحدى عَصِيَّهَا الكبيرة
مقدار من الهواء ، وتستطيع بها فتاة في السادسة عشرة من عمرها أن
تحدث فرقة لا تقل عن التي تحدثها سيدة في الخمسين بمروحة عادية .

وبعد أن تنطلق المراوح على النحو السابق أصدر أمرى بأن « تطرح
المراوح » . ويقصد بهذه الحركة أن تتعلم السيدة كيف تلقى مروحتها برشاقة
إذا اضطرت إلى وضعها بجانبها لتمسك أوراق اللعب ، أو تصلح خصلة من
شعرها ، أو تعيد ديوساً سقط منها إلى موضعه ، إلى غير ذلك من الأعمال
الخطيرة . وكل ما تشمله هذه الحركة هو أن تطرح السيدة مروحتها طرعا
جميلا على منضدة طويلة معدة إلى جانبها لهذا الغرض . وفي وسع السيدات
أن يتقنها في خلال يومين ، ولكن منهن من لا يجدها في أقل من سنة كاملة

وإذا ما جرد النساء من سلاحهن بهذه الطريقة أمرتهن عادة أن يسرن في الحجرة مدة من الزمن ، ثم أمرهن فجأة أن يستعدن سلاحهن ، (كما تفعل السيدات بعد أن ينظرن إلى ساعاتهن وهن في زيارة طويلة) . فإذا أصدرت هذا الأمر أسرعن إلى مراوحهن وأمسكن بهن من فورهن . ولا تلاق السيدة في هذا الجزء من التدريب صعوبة ما إذا وجهت إليه بالها . وآخر الحركات كلها وأمتعها على الإطلاق حركة هففة المروح . وفي وسع السيدة أن تتقن هذه الحركة في ثلاثة أشهر إذا كانت قد أحسنت الاستفادة من مدة التمرين السابقة ، ولم تكن قد صرفت وقتها عبثاً . ومن عادى أن اختار لتعليم النساء هذه الحركة أيام الحر الشديد ، لأنى حين أمر السيدة بهففة المروح يمتلئ المكان بنسيم عليل ينبعث الأجسام في ذلك الفصل من السنة ، مع أنه قد يكون في غير هذا الفصل ذا أثر سيئ في بنية السيدات المترفات . وثمة عدد لا يحصى من الحركات المختلفة تستطيع السيدة أن تكشف عنها بهففة المروحة ؛ فمنها الهففة الغضبي ، والهففة المتواضعة ، والهففة المرتبكة ، والهففة المرححة ، والهففة العاشقة . وقصارى القول أن كل عاطفة في القلب ، وكل حركة في النفس ، تقابلها حركة مناسبة لها بالمروحة ، كما أن في وسع الإنسان أن يستدل من حركة مروحة السيدة التي أحسن تدريبها على ما يجيش في نفسها من العواطف ، وأن يعرف هل تريد أن تعبر عن الضحك ، أو العبس ، أو الخجل ، أو غيرها . ولقد شاهدت مروحة غضبي إلى درجة يصبح من الخطر معها على العاشق الغائب الذي أثار هذا الغضب أن يقترب من مهب الريح التي أحدثتها ، ورأيت مراراً أخرى مراوح مضناة سقيمة سقما حمدت الله معه أن الحب بعيد عنها لا يراها .

وقبل أن أختم هذا الخطاب أرى من واجبي أن أخبرك أنني جمعت مشاهداتي في هذا الموضوع في رسالة صغيرة عظيمة الفائدة لتلميذاتي ، وسميتها « عواطف المروحة » . وأنا على استعداد لأن أرسلها إليك إذا ظننت أن في إذاعتها نفعاً للجمهور ، وسأعد في يوم الخميس المقبل استعراضاً عاماً لجيشي ، يسرني جداً أن أرحب بك فيه إذا رأيته جديراً بتشريفك .
وتفضل يا سيدي بقبول ... الخ .

حاشية : إنني أعلم الفتیان فن ملاطفة المراوح من أوله إلى آخره .
ملاحظة : لدى عدد من المراوح البسيطة التي تستخدم لهذا الغرض صنعتها خدمة للسيدات .

نادى القصار

بقلم

الكسندر پوپ Alexander Pope

١٦٨٨ — ١٧٤٤

[كان من صباه ضعيف البنية ، ولذلك لم تكن دراسته منتظمة ، وكان معظمها في منزله . وكتب الشعر وهو في سن الثانية عشرة ؛ وقبل أن يبلغ العشرين من عمره كتب مسرحيتين مأساة وملهاة ، وملحمة شعرية ، ولكنه أحرقها جميعا . ثم كتب مقالة في النقد في الحادية والعشرين من عمره ، وبدأ يترجم إلياذة هوميروس في الخامسة والعشرين ، وأتمها في سبع سنين ، وترجم بعد ذلك جزءا كبيرا من الأوديسة ملحمة هوميروس الأخرى . ومن أعظم قصائده الكبيرة قصيدته الشهيرة المسماة « مقال عن الإنسان Essay on Man » وهي من الشعر الفلسفى .

ولپوپ عدة رسائل ومقالات وقصائد أخرى في النقد والهجاء ، ومن أشهرها كلها ملحمة الأغباء The Dunciad في هجاء منافسيه من الأدباء] .

١٢

خير المبادئ الخلقية كلها أن يجرى الإنسان على سجيته . وكاتب الرسالة التالية مقتنع كل الاقتناع بهذه الحقيقة ، ولهذا تراه يتخذ من قصّره موضوعا للمرح والدّعابة اللطيفة ، مع أن هذه الصفة من شأنها أن

تجعل الإنسان شكسا نكدًا ، كثير الاهتمام بصغائر الأمور . وهو يقول في رسالته إن ظوله لا يزيد على نصف طول الرجل العادى ، ولكنه لا يأبه بهذا القصر ، ولا يمنعه ذلك أن يكون على الدوام إلى جانب أصدقائه ، يعاونهم ويقضى حاجتهم . ولقد أنشأ فى بلده ناديا يعمل على إذاعة فضل القصار .

وها هى ذى الرسالة التى بعث بها إلى :

«سيدى : لست أنسى لكم ، حين كنتم تتحدثون عنى قصرت قامتهم ، قولكم إن الناس لا يلحظون قط قصرهم إذا كانوا هم لا يكشفون بأعمالهم عن إحساسهم بهذا القصر . والحق أن الحكمة القائلة بأن الإنسان لا يُسخر منه لحالته التى هو عليها ، وإنما يسخر منه لادعائه أنه أعظم مما هو ، لتصديق على جسم الإنسان كما تصديق على عقله سواء بسواء .

«ولست أشك فى أنكم ستسرون إذا علمتم أن طائفة منا قد كونت من نفسها جماعة تعاهد أعضاؤها على ألا يستحوا من أن يكونوا قصارا ، وأن يباهوا بفضيلة القصر فى وجه المردة الطوال من بنى الإنسان ، الذين يغتصبون من فضاء الله أكثر مما لهم ، ويُطِلون علينا من فوق رؤوسنا ، كأنهم يطلون علينا من السماء .

«وكان يوم افتتاح معهدنا هو اليوم العاشر من ديسمبر أقل أيام السنة طولاً^(١) ، وسنحتفل بهذه الذكرى فى نفس هذا اليوم من كل عام ، ونقدم فيه للأعضاء من الطعام جراد البحر لأنه أصغر الحيوان جسماً . ولما اجتمعنا

(١) هكذا يقول الكاتب ولكن المعروف أن اليوم الثانى والعشرين من هذا الشهر هو أقصر أيام السنة .

لأول مرة في نادينا جاءت سيدة عجوز معها طفل لها تريد منا أن نربيه في مدرستنا لأنها رأتنا « فتية أحسن ممن ألفت رؤيتهم من قبل » . على أن هذه الحادثة لم تفت في عضدنا ، وبدأنا عملنا بأن دعونا كل من لا يزيد طوله على خمس أقدام للحضور إلى نادينا . ولكن معظم من دعونا هم أرسلوا إلينا يعتذرون أو يقولون إنهم غير حائزين للمؤهلات المطلوبة .

« وأجاب واحد منهم بأنه لا ينكر أنه يبلغ الآن خمس أقدام ، ولكنه واثق من أنه سيمتجاوز هذا الطول ، لأن صانع ملابسه وصانع أحذيته أسرّاً إليه بأنه سيبلغ عما قريب خمس أقدام وثلاثة قراريط .

وادعى آخر أن من سوء حظه أن إحدى ساقيه أقصر من أختها ، وأن الذى قدر طوله بخمس أقدام قد ظلمه ، إذ قدره وهو واقف على أقصر ساقيه ، فى حين أنه إذا وقف على ساقه الكبرى بلغ طوله خمس أقدام وقيراطين ونصف قيراط على أقل تقدير .

ومنهم من شكّوا فى دقة مقاييسنا ، ومنهم من لم يلبوا دعوتنا ، ولكنهم بعثوا إلينا يدلوننا على أناس أشد منهم قصراً . وقصارى القول أن كل واحد تقريباً قد أوصى بجار له أو صديق يريد منا أن نعهده أقصر منه نفسه . ولشد ما أخرجنا أن نرى أولئك الذين تجاوزوا سن النمو ، والذين تنطق لحاهم بأنهم بلغوا مبلغ الرجال ، يعمدون إلى تلك الصغائر التى يلجأ إليها أكثر الأطفال طموحاً حين تقاس أطوالهم .

ومن أجل هذا لم نعن بهؤلاء ، بل شرعنا نؤث نادينا ونجهزه بوسائل الراحة لأنفسنا . وبدأنا بإزالة جميع ما كان فيه من الكراسى والمقاعد الأخرى والمناضد التى ظل يستخدمها طوال الناس فى هذا المكان عدة سنين ؛

وذلك لأننا لا قينا في استخدام هذه المقاعد القديمة متاعب حجة لا يستطيع وصفها . فقد كان رئيس النادي حين يجلس على كرسى الرياسة يفوض جسمه كله فيه ، وإذا اتكأ بذراعيه على مسنديه بدا كأنه طفل في عمرته ؛ وكان هذا امتهاً شديداً لقدره . يضاف إلى هذا أن المقعد كان يبلغ من السعة حداً أتاح لأحد الظرفاء ، وقد دخل إلى نادينا على حين غفلة ، أن يقول إن موضع الرياسة كان شاغراً وإن كان الرئيس جالسا فيه .

« أما المائدة فقد بلغ من ارتفاعها أن ذقوننا لم تكن ترتفع فوق صحاف الطعام ؛ وحدث أن رأى ذلك أحد الزائرين وظننا جماعة من الرجال جاءوا لتحلق لهم لحام ، فخرج من فوره وأرسل إلينا طائفة من الحلاقين . وحدث مرة أخرى أن ظن أحد الأعضاء أن الرئيس غائب عن الجلسة فأخذ يقدح فيه ويستطيل في عرضه ؛ ولم يكن الرئيس غائبا في الحقيقة ، بل كل ما في الأمر أن زجاجة الشراب كانت أمام وجهه فحجبته عن الأعين . لهذا لم نبدأ من أن نستبدل بأثاث النادي أثاثا جديدا يلائم حالتنا كل الملاءمة ؛ ولهذا أيضا أنزلنا أسكفة الباب حتى لا يستطيع دخوله من زاد طوله على خمس أقدام إلا إذا احتك بها رأسه ، ومن كانت هذه حاله لا يصح قبوله عضوا في جماعتنا .

وإليك بعض قوانين نادينا :

١ — إذا ثبت أن أحد الأعضاء ، مهما تكن مؤهلاته الأخرى ، قد حاول التظاهر بأنه أكبر من حقيقته ؛ بأن تخطط أو انتفخ ، أو وقف بين الناس على أصابع قدميه لكي يظنه الناس طويلا مثلهم ، أو جلس على كتاب كبير أو مضرب كرة ، أو احتال بأية وسيلة أخرى على أن يرتفع

في مقعده ، إذا ثبت أن أحد الأعضاء ارتكب شيئاً من هذا كان جزاؤه أن يعيش بين الناس في حذاء لا كعب له شهراً بأكمله .

٢ — إذا حاول أحد الأعضاء أن يطيل شعره المستعار ، أو ثيابه أو قبعته أو غيرها ، لكي يبدو أطول مما هو ، حكم عليه بأن يلبس حذاء ذا كعب أحمر وقبعة ذات ريشة حمراء ، ليحدد الكعبان والريشة طوله فيعرفه الناس على حقيقته .

٣ — إذا اشترى عضو لنفسه حصاناً يزيد ارتفاعه على أربع عشرة قبضة ونصف قبضة ، يبيع هذا الحصان على الفور واستبدل به حصان اسكتلندي لا يزيد على هذا الطول ، وضم الفرق بين الثمين إلى أموال النادي .

٤ — إذا اجترأ أحد الأعضاء على مخالفة قوانين النادي الأساسية ، بأن اتخذ له حذاء يزيد ارتفاع كعبه على قيراط واحد ونصف قيراط ، عد هذا العمل منه مجاهرة بنبذ فضيلة القصر ، وأخرج المجرم من بين الجماعة في الحال . ويوضع القرار الصادر بإخراجه في الصيغة الآتية :

« أخرج من بيننا وكن طويلاً مع الطوال إذا استطعت » .

« وأعضاء نادينا كلهم مجمعون على أن الطبيعة نفسها تعمل عن قصد لإنقاص طول الناس ؛ والدليل على هذا أن الجنس البشري يتناقص طول أفراده باستمرار من بدء الخليقة إلى الآن .

« واعتقدنا أن الناس كلهم صائرون حتماً إلى حد السكال في هذا المضمار ،

أي أنهم سيصبحون مساوين لنا في الطول على مر الزمان .

وتفضلوا ياسيدي بقبول تحياتي

خادمكم الطيع

بب القصير

(طبق الأصل)

مزايَا السكّنى فى عُلْيَةِ البيت^(١)

بقلم

صمويل چنسن Samuel Johnson

١٧٨٤ — ١٧٠٩

[كان أبوه بائع كتب فى بلاد الريف ؛ وبعد أن تعلم فى مدرسة بلده أرسل إلى أكسفورد ، لكن الفقر حال بينه وبين إتمام دراسته فيها ؛ ثم افتتح له مدرسة بالقرب من بلده فلم يأت إليها إلا تلميذان أو ثلاثة منهم دافد جرك David Garrick الممثل المشهور ، واشتغل مراسلاً برلمانياً لإحدى الجرائد ، وأخرج فى هذه المدة عدة قصائد وروايات ومسرحيات وأنشأ جريدة الجوال The Rambler . وكان فى الوقت نفسه يعمل فى قاموسه العظيم الذى أذاع شهرته وجاءه بدرجتين جامعتين من أكسفورد وديبلن ، كما جاءه بمال وفير أنفقه كله فى طبعه . ثم رتبت له الحكومة معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه كان ينفق الكثير منه فى وجوه البر المختلفة .

وكان چنسن زعيم الأدب فى عصره ، وهو الذى أنشأ نادى الأدباء ، وكان من أعضائه صديقه جيمس بزل James Boswell كاتب سيرته الشهيرة التى تعد خير السير على الإطلاق والتى يقول مكولى فيها « إنها رفعت من قدر چنسن أكثر مما رفعت أحسن مؤلفاته » .

(١) فى القاموس العلية الحجره وجمعها العلالى وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Garret وهى الحجره التى تلى سطح الدار مباشرة .

وخير ما كتبه جنسن « رحلته إلى الجزائر الواقعة في غرب اسكتلندة »
و « حياة الشعراء » ؛ ولكن شهرته لا تقوم على شعره وكتبه ، بل تقوم
على شخصيته الفذة ، وحديثه العذب ، وعلى سيرته التي كتبها بزول . وقد
كان له أكبر الأثر في الأدب الإنجليزي في النصف الثاني من القرن
الثامن عشر [.

١٣

إن أكبر ما يعترض سبيل تقدم العلم ميل العقول البليدة للاستهزاء
بما لا تفهم . ذلك بأن الإنسان لا يجد ويعمل إلا إذا كان له من وراء
جده وعمله أمل ، وكثيراً ما يكون الأمل الوحيد للعاملين أن يمدحهم
الناس ويثنوا عليهم ، فإذا لم يجدوا بدل هذا إلا التحقير والإهانة استسلموا
للإياس ، كما يستسلم للإياس أيضاً من يجيء إلى المجتمع الصاخب مستمسكاً بحياة
العلماء المفكرين ، لم يوطن نفسه على مواجهة الحياة العامة ، أو يرض عواطفه
على احتمال ما في حديث الناس من سخافات ، فتراه يغلبه الحياء إذا ما نظر
إليه مكذب شكس نظرة من لا يصدق أقواله . وإذا ما ضحك الناس
منه واستهزءوا بقوله فقد ينهزم أمامهم مهما يكن مسلحاً بأقوى البراهين ،
فإن كان مهندساً خشي أن يقول أمام معارضيه الأقوياء إن في وسعه أن
يهدم الحصون بخيوط من حرير ، وإن كان فلكياً لم يقو على التصريح
بسرعة الضوء وبعد النجوم الثوابت وعلو الجبال في القمر .

ولو أنني استقطعت أن أتحرر من هذا الجبن لما تخففت تحت اسم مستعار ،
وأنا أطلب إلى هذه الصحيفة أن تنشر على الناس آرائي في موضوع
السكنى في العلية ، وهو موضوع لم يعن به حتى الآن أجدر الناس بالكتابة

فيه ، ولهذا لم نقرأ عنه إلا قليلا . وقد يكون سبب هذا الإهمال أن الكتاب لا يجدون متسعاً من الوقت لمواصلة البحث الذى يتطلبه مثل هذا الموضوع الدقيق ، وقد يكون سببه أنه يحتاج إلى علم غزير متنوع ورغبة قوية فى الاطلاع قلما يجتمعان فى عقل واحد . ولعل بعض الكتاب قد تنبؤوا بما قد تثيره عليهم آراؤهم من صخب وضجيج ، فاحتفظوا بعلمهم فى صدورهم ، وتركوا الحمقى ذوى الأهواء يخطون فيه خبط عشواء .

لقد عرف الناس من أقدم الأزمنة أن أساتذة الأدب يسكنون عادة فى أعلى الطبقات ، ذلك أن القدامى قد هدتهم حكمتهم بما للأماكن العالية من فوائد للعقل لا تنكر ، وإلا فلم كان مقام ربات الشعر فى ألبس Olympus^(١) أو برنسس Parnassus^(٢) حيث وضعها أولئك الذين كان فى وسعهم أن ينشئوا لها العرائش من الأغصان فى الوديان المنخفضة ، أو يشيدوا مداخلها عند منحنيات الأنهار ؟ ولم نشأ حيث رب الأرباب على الجبال ؟ ولم اجتمعت الإلهات الإناث فوق قمة أيدا Ida^(٣) ليفصلن فيما شجر بينهما حين اختلفن على من تستحق منهن جائزة الجبال ؟ تلك هى الأساطير التى حاول بها

(١) ألبس Olympus اسم قديم لعدة جبال أشهرها جبل على حدود مقدونيا وتساليا ، كان اليونان الأقدمون يقولون إنه موطن الآلهة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية آلاف قدم .

(٢) بارنسس Parnassus جبل آخر من جبال اليونان على بعد ٨٣ ميلا من شمال أثينا الغربى بالقرب من مدينة دلفى ؛ وهو عند اليونان الأقدمين مقر أبلو وربات الشعر ، ومن أجل هذا عُد منبع الشعر والموسيقى . ويبلغ ارتفاع أعلى قممه نحو ٨٦٠٠ قدم .

(٣) أيدا Ida سلسلة جبلية فى آسية الصغرى قرب طروادة وأخرى فى جزيرة كريد وكتلتها ذات صلة بالأساطير اليونانية القديمة .

الأقدمون أن يظهروا للخلف أهمية العلالى . ولقد ظلت الأجيال التالية لا تدرك المعنى المراد من هذه الأقوال لجهلها وقلة عنايتها ، وإن كان فيثاغورس العظيم قد عناها بقوله المشهور :

« إذا هبت الريح فاعبد صداها »

ولم يكن أتباعه ليفهموا من هذا القول إلا أنه أمر منه ، لا يستطيعون أن يعصوه ، بأن يسكنوا العلالى ، وهى حجر قد وجدت أنا نفسى أنها فى مهب الريح وطريق صداها ؛ وظل هذا المعنى نفسه هو المفهوم من هذه العبارة فى العصر الذهبى للأدب اليونانى . وما من شك فى أن تيبليس Tibullius ^(١) كان يهنى نفسه بعليته ويشير إلى حكمة فيثاغورس السابقة حين يقول :

« ما أحلى أن يقضى الإنسان أوقات فراغه نائماً تهدئه الريح العاصفة والمطر المدرار » . ولا يسع الإنسان إلا أن يتبين حب لسكرتيس — وهو كاتب متقدم على تيبليس — لسكنى العلالى فيما وصف به العلم من سمو ورفعة ، وفى قوله إن الرجل الحكيم يغتبط حين يُطِيل من مركزه الرفيع على العالم وهو يموج ويضطرب من تحته ، وذلك فى قوله :

« ما أحلى أن تقودك خطاك إلى مراقى الفضيلة وأنت مزود بالحكمة ومسلح بالعلم الخطير الغزير ، ثم تطل من مقامك السامى على بنى الإنسان وهم يتعثرون فى طرق الحياة الملتوية عمياً لا يبصرون » ^(٢) .

(١) تيبليس Tibullus (٥٤ ق . م — ١٨ ب . م) شاعر روماني من كتاب المراثى الشعرية .

(٢) ليس فى هذا الوصف بطبيعة الحال إشارة إلى مزايا السكنى فى الحجرات العالية كما يقول الكاتب مداعباً .

ولقد بقيت سكنى العلالى تقليدا متبعا لدى العلماء إلى يومنا هذا ، فلا تزال هذه الحجرات مأوى الفلاسفة والشعراء ، ولكن الذى أبقي على هذه العادة ، كما أبقي على كثير غيرها من العادات القديمة ، هو التقليد غير المقصود ، دون أن يعرف المقلدون منشأها ، ولا يزال سببها خفيا مجهولا وإن كان أثرها معروفا .

نعم إن هنالك أسبابا يفترضها البعض لتعليل سكنى الأدباء فى هذه الحجرات ، ولكنها لا تقنع الباحث المحقق . فمن الناس من يظن أن الأديب الأسمى يسكن العلوية لأنها أقل أجراً ، واستنتجوا من ذلك أن المقيم فى هذا المسكن الهوائى لا يغتبط به إلا فى اليوم الذى يؤدى فيه أجره ؛ ومنهم من يظن أن أكثر ما يجب الأديب فى العلالى أنها أبعد أجزاء الدار عن بابها الخارجى الذى يغشاها الزائرون فى كثير من الأوقات ، ولا ينقطع عنده حديثهم عن الخبز والملابس الداخلية والخارجية ، يكررونه كل صباح ، وكثيراً ما يعيدونه بنصه فى المساء ، لا يكاد يختلف فى شيء اللهم إلا فى كثرة الصخب واللجاجة وفى اختلاف الأصوات من الهمس الحزين إلى الغضب الصاخب ، وهذا الاطراد المستمر العمل مما يمتقه الرجل الذى لا يلذه شيء أكثر من زيادة معلوماته وتنوع آرائه .

ومنهم من يقول إن الأدباء يختارون هذا المسكن لأنه يمنع عنهم الضوضاء ويباعد بينهم وبين ما ألفه الناس من مشاغل وملاهي جملة . وثمة طائفة أكثر من كل هؤلاء تعلقاً بالخيالات والأوهام تقول إن مواهب الإنسان تتسع أفاقها فى المناظر الرحبة المكشوفة ، وإن الخيال يكون أكثر حرية إذا كان البصر غير محصور فى حدود ضيقة وتلك أسباب للراحة قد تكون كلها متوفرة فى علية الدار إذا أحسن اختيارها .

ولكن أحداً لا يظن أن لها من الخطر ما يجعل لها هذا الشأن العظيم في كل الجواء وفي جميع العصور وعند مختلف الشعوب ؛ وإذا رأيت عادة شائعة منتشرة هذا الانتشار الواسع فالذى يتبادر إلى الذهن أن لها سبباً عاماً ؛ ومهما خفي هذا السبب واستغلق فقد تكون الأقدار قد احتفظت به حتى أكتشفه أنا فيعلو قدرى بكشفه وقدرك أيها القارىء بالعمل على نشره .

من المعروف لدى الناس عامة أن المواهب العقلية تقوى أو تضعف تبعاً لحالة الجسم ، وأن الجسم نفسه يتأثر إلى حد كبير بضغط الهواء عليه . ولم ينكر أحد قط من عهد أبقرط إلى يومنا هذا ما للهواء من أثر في إصابة الجسم بالعلل أو برئه منها ، ولكن أحداً لم يعن قط العناية الواجبة بما للهواء من أثر في عمل العقل ، وإن كنا نرى في كل يوم أمثلة من الأفهام والعقول والبداية السريعة قد تكييفت مواهب أصحابها لتلائم مكاناً خاصاً ، إذا أبعدوا عنه إلى غيره صحت ألسنتهم وجمدت عقولهم . ولقد تبين لى بعد مشاهدات طويلة أن ملكة الاختراع وفصاحة اللسان تؤثر فيهما أسوأ الأثر الأبخرة الكثيفة غير النقية ، وأن رقة الهواء الصافي البعيد عن سطح الأرض تنمى الخيال وتطلق القوى العقلية التى كانت من قبل أسيرة الجاذبية الشديدة ، مقيدة بها لا تستطيع أن تتسع لما تنوء به من ضغط الهواء الكثيف . ولقد وجدت أن بلادة الحس تستحيل إلى شعور مرهف فى الوسط الرقيق ، كالماء يسرع فى الغليان إذا وضع فى إناء أفرغ منه بعض الهواء . والرؤوس الفارغة فى الظاهر إذا انتقلت إلى مكان عال ازدحمت فيها الأفكار حتى تصبح أشبه شئ بكرة القدم التى انتفخت فأتسع فضاؤها وجمدت جوانبها .

ولهذا فإني لم أعتقد في يوم من الأيام أن من حق أن أصدر حكماً قاطعاً على مواهب إنسان ما إذا كنت لم أره إلا على ارتفاع واحد معين ، بل إنني آتخين الفرص فأتبعه من أسفل الدار إلى أعلاها وأشاهد ما يكون لتخلخل الهواء وكشافته وخفته وضغطه من أثر فيه ؛ فإذا لم أجده مرحاً طروباً في المرتفعات ، أو رزيناً وقوراً في المنخفضات ، حكمت أنه لا يرجي منه خير أبداً ؛ وقلما صادفت إنساناً خفي عنى مزاجه وما يلائم نسيج عقله إلا استطعت في الوقت المناسب أن أقيس هذا المزاج بأنبوبة من الزئبق أحدد عليها أولاً النقطة التي يتجلى فيها ذكاؤه بأجلى مظاهره طبقاً لقواعد أنفقت العمر في دراستها ، ولربما أذعتها على الناس في رسالة عن « الرياح وقياس ضغطها » .

وقد يكون من أسباب مرح سكان العالى وخفتهم ازدياد سرعة حركتهم الدائرية المترتبة على حركة الأرض اليومية . فكلنا يعرف ما لقوة الاهتزاز من أثر في النفس ، وما منا إلا شعر بخفة قلبه وهو في مركبة سريعة أو على ظهر حصان عداء ؛ وليس شيء أوضح من أن من يقيم في الطبقة الخامسة من بناء يجتاز في كل حركة من حركات الأرض فضاء أكثر مما يجتازه من يزحف على سطحها في الطبقات السفلى ؛ ومن أجل هذا اشتهرت الأمم التي تعيش بين المدارين بمحبة طبعها ، وسرعة قلبها ، وقوة ابتكارها وخيالها ، لأنها تعيش عند طرف أكبر نصف قطر من أقطار الأرض ، فتدور حولها أسرع مما تدور الأمم التي تقيم في أمكنة أقرب إلى القطبين . ولما كان من واجب كل عاقل أن يعالج ما يصادفه من العيوب ، فإن من واجبتنا نحن أن نعالج ما قد يعترينا من خمول بأن ندور

حول مركز الأرض بضع دورات في حجرة عند سطح الدار .
 وإذا بدا للقارىء أنى أعزو إلى الهواء والحركة آثاراً ليست لهما فإنى أشير
 عليه بأن يرجع إلى ذاكرته ، وأن يسأل نفسه : ألم يكن يعرف في يوم من
 الأيام رجلاً ذاعت شهرته وهو يسكن عُلىة ، فلما أن واثاه الحظ أو جاءه
 العون من نصير ثرى فسكن في الطابق الأول لم يستطع أن يحتفظ بما نال
 من صيت بعيد ، ولم يستعد قوة إدراكه إلا بعد أن ارتد إلى مكانه الأول ؟
 وأنا أبعد الناس عن الظن بأن في مقدور علية الدار أن تجعل كل من سكن
 فيها فطناً أريباً ؛ فأنا أعرف أن من الناس من يبقى غيباً ولو سكن في أعلى
 جبال الأند Andes أو على قمة تنريف Teneriffe .

وأحب ألا يُظنَّ أحد من الناس غير قابل للإصلاح إلا بعد أن يجرب
 فيه هذا العلاج القوى ؛ فلربما كان هذا الرجل قد خلق لأن يكون عظيماً
 في علية كما لم يكن البحار أرتيوس Aretaeus^(١) عاقلاً إلا في مكان واحد
 دون غيره وهو حانوته الخاص .

وأنا أرى أن انتقال الإنسان على أبعاد مختلفة من مركز الأرض أمر
 لا غنى عنه للحكم على مواهبه العقلية حكماً صحيحاً ؛ ومن ثم فإن هذا الانتقال
 عظيم الفائدة في شئون التعليم ؛ فإذا ما تحقق رجائى فى أن يقبل الجمهور على
 هذه التجربة الشاملة فإنى أقترح أن يحفر فى الأرض كهف منخفض ويشاد
 فوقها برج عال ، كالكهف والبرج اللذين يصفهما بيكن Bacon فى بيت

(١) أرتيوس Aretaeus طبيب وكاتب يونانى عاش فى القرن الأول أو الثانى
 بعد الميلاد ، وكتب رسالة فى ثمانية مجلدات فى أسباب الأمراض المزمنة الحادة وأعراضها
 وطرق علاجها .

سليمان ، لكي يتمدد فيهما عقل الإنسان أو يركز حسبما تقتضيه ظروف أعمال الناس وبنيتهم المختلفة ؛ وربما تبين أن الذين تتطير أفكارهم عن الفضاء والزمن في أعلى البرج يستطيعون أن يضعوا جداول رياضية دقيقة عظيمة النفع إذا نزلوا قليلا إلى أسفل ، وأن الذين يقضون الوقت في نهمول وسكون عند سطح الأرض قد يستخفهم المرح في الطبقات العليا فتصدر منهم فيها الإجابات المفحمة والخطب الحماسية .

ويقول أدسن Addison إن في مقدورنا أن نجد حرارة الجو الذي كان يقيم فيه ثرجل في بعض سطور قصائده ؛ ومصادقا لهذا أقول إنى إذا قرأت كتابا ما عرفت منه في الحال ارتفاع مسكن مؤلفه . ويقول الناس عادة إذا أرادوا أن يثنوا على قطعة أدبية جميلة المعنى رصينة اللفظ : إنها « تشم فيها رائحة المصباح » . أما أنا فإن الذى أمتدح به الفكرة النبيلة ، أو الملمحة اللطيفة ، أو الاستعارة القوية ، هو أن أقول إنها « خارجة لساعتها من عليية الدار » . وتلك عبارة جديرة بأن يوصف بها كل ما يكتب في هذه الصحيفة من مقالات .

التعصب القومى^(١)

بقلم

ألفر جولد سميث Oliver Goldsmith

١٧٢٨ — ١٧٧٤

[ولد فى أيرلندة ، ودرس القانون فى جامعة دبلن ، ولكنه تحول عنه إلى دراسة الطب فى جامعة إدنبرة وفى جامعتى ليندن ولوفان ، ثم أخذ يطوف فى أوربا وليس معه إلا « جنيه واحد فى جيبه وقيص واحد على ظهره ومزمار فى يده ». ولما عاد إلى لندرة حاول أن يكسب قوته بالاستغفال بالتدريس ثم بالطب ، ثم بقراءة تجارب فى إحدى دور النشر . ومن سنة ١٧٦٠ أخذ ينشر مقالاته المعروفة « بالرسائل الصينية » ، ويصور فيها المجتمع الإنجليزى كما يراه الرجل الشرقى . وقد نشر هذه الرسائل مجموعة بعد عامين من ذلك الوقت .

ولجولد سميث شعر جيد ، وخير قصائده قصيدة القرية المهجورة The Deserted Village والسائح The Traveller ، وله عدة مسرحيات جيدة ، ولكن شهرته إنما تعتمد على مقالاته الأدبية ذات الأسلوب السهل والفكاهة العذبة [.

١٤

يُخَيَّل إلى أن الإنجليز لا يقولون عن اليابانيين صمماً ، ولكنهم أكثر

(١) على لسان سائح صينى قدم إلى إنجلترا يصف أخلاق الإنجليز .

من أهل سيام زهواً وكبرياء . وقد كنت حين جئت بلادهم أعزو هذا التحفظ الذى يلزمهم إلى تواضعهم ، حتى وجدت أن منشأ الكبرياء . وشاهد ذلك أنك إذا نزلت أنت عن كبريائك وبدأتهم بالحديث أصبحت من معارفهم ، وإذا نزلت أكثر من هذا فتملقهم كسبت صداقتهم واحترامهم . وهم يصبرون على الجوع والبرد والتعب ومتاعب الحياة كلها بلا جزع ، وكل ما للأخطار التى تواجههم من أثر فى نفوسهم أنها تثير فيهم روح الصبر والجلد ، وهم لا يجزعون من المصائب تحل بهم ، وكل الذى لا يطيقونه أن تحتقرهم . فالإنجليزى يرهب الاحتقار كما يرهب الموت ، وكثيراً ما يفر إلى الموت لينجو من ذل الاحتقار ، ويقضى على حياته إذا خيل إليه أن العالم لم يعد يعظمه .

وليس التعصب فى رأى مصدر رذائلهم القومية فحسب ، بل هو مصدر فضائلهم القومية أيضاً ، فالإنجليزى ينشأ من صغره على حب مليكه ، وعلى أن يعده صديقاً له ، ولكنه ينشأ أيضاً على ألا يعترف بالسيادة لغير القوانين التى اشترك هو فى وضعها ، وهو يحتقر تلك الأمم التى يرضى أبنائها أن يصبحوا كلهم عبيداً ليكون فرد من أفرادها حراً . والحرية يتردد صداها فى جميع مجالسهم ، وقد تجد آلافاً منهم مستعدين لأن يضحوا بحياتهم فى سبيلها ، وإن لم تجد واحداً منهم يفقه لها معنى . على أن أحقر صانع منهم يرى من واجبه أن يكون الحارس الأمين لحرية بلاده ، وكثيراً ما تراه يعبر عن آرائه بلغة لو نطق بها عاهل عظيم ممن يدعون أنهم من نسل السماء لعدت دليلاً على التفاخر والكبرياء .

واتفق أن كنت من بضعة أيام ماراً أمام أحد سجونهم فوجدتني أقف

على الرغم منى لأستمع إلى حوار ظننت أن فيه بعض الطرافة . وكان الحديث يدور من خلال قضبان السجن بين مدين فى داخله وحمّال فى خارجه ألقى حملا عن عاتقه ليستريح ، وجندى واقف عند نافذة السجن . وكان موضوع الحديث أن إنجلترا مهددة بالغزو من ناحية فرنسا ؛ وبدأ لى أن كل واحد من هؤلاء يحرص أشد الحرص على أن ينقذ بلاده من الخطر المحدث بها . وكان مما قاله السجين : « إن أشد ما أخشاه أن نفقد حريتنا ، فإذا ما فتح الفرنسيون بلادنا فإذا يكون مصير الحرية الإنجليزية ؟ أجل يا صديق العزيز ! إن الحرية حق لكل إنجليزى ومن واجبنا أن نحافظ عليها وإن ضحينا فى سبيل ذلك بحياتنا ، ولن يسلبنا الفرنسيون هذه الحرية مهما فعلوا ، وسيفعلون كل ما يستطيعون للقضاء عليها . وهل يتصور الإنسان أن قوما هم أنفسهم عبيد يبقون على حريتنا إذا قدر لهم أن يغلبونا على أمرنا ؟ » وأجابه الحمّال : « نعم عبيد . إنهم كلهم عبيد ، وليس منهم من يصلح لعمل إلاّ لئال الأثقال ، وقبل أن أخضع لهم خضوع العبيد فلاّ تجر عن هذه الكأس مُترعة بالسّم » . قال هذا وهو يشير إلى كأس كانت بيده « نعم لأّ تجر عنها سما زعافا إذا لم أتطوع للخدمة فى الجيش » . وأخذ الجندى الكأس من يد صديقه فى رعب شديد وصاح فى حماسة قوية : « ليس الذى نخشاه من هذا الغزو هو ما يصيب حريتنا على يد هؤلاء الأقوام بل ما يصيب ديننا ، نعم ديننا يا صديق ، ثم أقسم قائلا : « وأقسم غير حاث — أو فليحرقنى الشيطان بناره — أن الفرنسيين سيقضون قضاء مبرما على ديننا إذا وطئت أقدامهم أرضنا »

وقصارى القول أن كل رجل فى هذه البلاد يدعى أنه سياسى ، بل إن

من المجلس اللطيف نفسه من يجمع بين قوة الجدل السياسى ودلال الحب ، وكثيراً ما يصرع الناس بأسلحة غير عيونهم . والصحف في هذه البلاد هي التي تنشر بين الناس شهوة الاشتغال بالسياسة كما تفعل الصحف في بلاد الصين ، ولكن الإمبراطور في بلادنا هو الذي يحاول أن يعلم شعبه الشؤون السياسية ، أما في إنجلترا فإن الشعب هو الذي يحاول أن يعلمها حكاه . ولا تظن مع هذا أن الذين يحررون هذه الصحف يعلمون شيئاً عن سياسة الدول أو طريقة حكمها ، إنهم يجمعون ما يكتبون فيها مما يوحى به إليهم متحدث في أحد النوادي ، وهذا المتحدث نفسه قد تلقاه في الليلة السابقة من شاب رقيق على مائدة الميسر ، وهذا الشاب قد استرق الحديث من بواب عظيم من العظماء ، والبواب قد أخذ معلوماته عن تابع من أتباع ذلك العظيم ، والتابع قد اختلق القصة كلها ليسلي بها نفسه في الليلة السابقة . ويبدو لي أن الإنجليز بوجه عام يحرصون على أن ينالوا احترام من يتحدثون إليهم أكثر من حرصهم على أن ينالوا حبهم ، وهذه الخلقة تطبع مسراتهم ووسائل لهوهم بطابع من التكلف لا خفاء فيه ، فحديثهم مهما بلغ من المرح تبدو عليه مسحة من التعقل والرزانة تبعده عن اللهو البريء . وإذا كنت في جماعة منهم فإنك قلما تجد بينهم رجلاً أبله أحمق تنفر من سخافته ، ولكنك قلما تجد تلك النسوة المنبعثة من المرح الذي يطرب الإنسان لساعته ، وإن كان هذا الطرب لا يدوم .

على أنهم يستعيعضون عما ينقصهم من المرح بما في طباعهم من أدب جم ، وقد تعجبون وتضحكون حين أمدح الإنجليز بأدبهم ، وأنتم الذين سمعتم غير هذا من المبشرين في بكين Pekin ورأيتم ما يخالفه في سلوك

التجار والبحارة منهم في بلادنا . ولكنى ما زلت أقول إن الإنجليز أكثر أدبا من جيرانهم ، وإن أهم ما يمتازون به من هذه الناحية مهارتهم العظيمة ، حين يصنعون الجميل ، في أن يقللوا من أثره في نفس من يصنعونه معه . ولست أنكر أن غيرهم من الأمم يحبون أن يُشعروا الغريب بفضلهم عليه ، لكن الإنجليز يصنعون المعروف ويُظهرون عدم اهتمامهم بما صنعوا ، ويقدمون الخير وكأنهم يحتقرون ما قدموا .

ولقد حدث أن كنت من عشرة أيام مضت أسير بين رجلين أحدهما إنجليزى والآخر فرنسى في طريقنا إلى إحدى ضواحي المدينة . وبينما نحن في الطريق إذ أمطرتنا السماء مطراً غزيراً ، ولم يكن لدى ما أتيقه به . أما صاحبى فقد كان مع كل منهما معطف كبير يستطيع أن يتقى به سيله الجارف . ورآنى الإنجليزى منكشاً من رداءة الجو فقال لى : « ما هذا أيها الرجل ؟ مم تنكش ؟ خذ هذا المعطف فلست في حاجة إليه ، ولا أرى فيه فائدة لى ، ويسرنى أن أتخلص منه . وأراد الفرنسى أيضاً أن يكون له مثل هذا الفضل : فقال « أيها الصديق العزيز لم لا تدخل السرور على نفسى بأن تتقى المطر بمعطفى ؟ إنه يحفظنى منه كما ترى ، ولا أستطيع أن أتخلى عنه لأحد من الناس ، أما من كان مثلك أيها الصديق فإنى يسرنى أن أتخلى له عن جلدى نفسه ، إذا كان في ذلك فائدة له »

ذلك ما يسمح به المقام الآن ، وفيه ما يدل على الأخلاق الإنجليزية بوجه عام . ولقد كان للطبيعة نفسها أثر في نشأة هذه الصفات فيهم ، فالطبيعة خير هاد ومعلم ، وما علينا إلا أن نحسن اختيار ما تقدم لنا من دروس لكي نصبح بذلك أرشد الناس عقلاً وأعظمهم حكماً .

نادى المؤلفين^(١)

بقلم

القر جولدسميث Oliver Goldsmith

١٥

يستفاد من الأخبار التي جاء تنى من موسكو أن القافلة لم تغادر الصين بعد ؛ وأنا الآن أكتب إليك مرة أخرى راجيا أن تصلك رسائل كثيرة دفعة واحدة ؛ وستجد فيها وصفا مفصلا لصفات الشعب الإنجليزي ، وإن لم تجد فيها صورة عامة لأخلاقه وأمزجته . ولو أن الرّحالة كلهم قد فعلوا ما أفعله أنا ، فأطلعونا على أحوال الشعوب مفصلة ، ولم يكتفوا بوصفها بعبارات عامة غامضة ، لكان فيما يفعلون الخير كل الخير لبنى الإنسان . ومن الواجب علينا إذا أردنا أن نعرف عقلية الشعوب أن يكون بحثنا عنها على نمط التجارب العلمية ، فإذا اتبعنا هذه الطريقة حصلنا على معلومات عن الأمم الأجنبية أدق وأصدق مما نحصل عليه الآن ، وعرفنا خطأ ما يصدره السياح عن هذه الأمم من أحكام .

ولقد زرت أنا وصديق مرة أخرى نادى المؤلفين ، فلما دخلناه وجدنا أعضاء كلهم مجتمعين يتناقشون بأصوات مرتفعة ، ووقع نظرنا على الشاعر فى ثيابه الرثة ويده مخطوط يحاول جهده أن يقنع زملاءه بالإصغاء إليه ؛ وكان الذى بيده هو الكتاب الأول من قصيدة حماسية أنشأها فى اليوم

(١) من رسائل السائح الصينى .

السابق لزيارتنا . وعارض الأعضاء معارضة شديدة في هذا ، وقالوا إنهم لا يرون مبررا لأن يميز عضو من الأعضاء هذا التمييز الخاص ، في حين أن الكثيرين منهم قد نشروا مجلدات كاملة لم يطلع عليها أحد منهم ؛ وأصروا على الرجوع إلى القانون وهو صريح في النص على الأحوال التي يسمح فيها بقراءة المؤلفات على هيئة النادي مجتمعة . وحاول الشاعر عبثا أن يحتج بما لكتابه من ميزة خاصة ، فقد كان يتحدث إلى جماعة أصمت آذانها عن سماع حججه بأجمعها . وجيء بقانون النادي وفتحته كاتب السر فوجد أنه ينص صراحة على أن « الشاعر أو الخطيب أو الناقد أو المؤرخ الذي يجرو بلا استئذان على أن يشغل وقت الجماعة في قراءة كتاب له يفرض عليه أن يدفع نصف شلن قبل أن يفتح مخطوطه ، وأن يدفع فوق ذلك شلنا واحدا عن كل ساعة يقضيها في قراءته ، على أن يوزع ما يجمع من ذلك على الأعضاء بالتساوي نظير ما يتحملونه من مشقة في الإنصات إليه » ١ . هـ

وبدا على الشاعر في أول الأمر شيء من الخوف عندما سمع بهذه العقوبة فتردد وقتا ما بين دفع الغرامة وبين إقفال الكتاب ؛ ثم أدار بصره في الحجرة فرأى فيها شخصين غربيين ، فغلب حب الشهرة على الفطنة وأصر على أن يتمتع بحقه كاملا غير منقوص . وعندئذ ساد الحجرة سكون رهيب وبدأ الشاعر يشرح الغرض الذي يرمى إليه فقال : « سادتي . ليست هذه القصيدة من الملاحم الشعرية العادية التي يفاجأ بها الناس في بعض الأحيان ، والتي لا يكادون يطلعون عليها حتى يهملوا أمرها ؛ وكل الذي أرجوه منكم أن تكون نفوسكم منسجمة مع نفسي ، وأن تنصتوا إليّ في حماسة مماثلة للتي كتبت بها ملحمتي . إن القصيدة تبدأ بوصف غرفة النوم في بيت

مؤلف ، والصورة مأخوذة في مجلتها من حجرتي الخاصة ، وأنتم تعرفون أيها السادة أنني أنا نفسي من أبطال الملاحم الشعرية . قال هذا ووقف وقفة الخطيب ففخم صوته وأشار بيده وأخذ ينشد قصيدته . وبعد أن تلا منها عشرين بيتا بلغت حماسته مبلغا لم يستطع معه أن يواصل القراءة فصاح قائلا : « ذلكم ياسادتي ما وصفت به حجرة النوم ؛ ولو أنكم وازنتم بينه وبين ما وصف به ربلية Rabelais حجرة نومه لكان وصفه هو السخف بعينه . ففى وصفى النعمة والمعنى والصدق والانسجام والطبيعة مجتمعة كلها فيما لا يزيد على عشر تفاعيل صغيرة » .

وشغله إعجابه بنفسه عن رؤية الجمع الذى كان يبدى له كل مظاهر الاحتمار بإشارات الرأس والعينين والكتفين والضحك المكتوم . ثم أقسم واحد منهم أنها لا تبارى ، وقال آخر إنها جميلة إلى حد لا يطاق ، وصاح ثالث فى حماسة شديدة : « ما أحبها إلى نفسى ! » ثم التفت الشاعر إلى الرئيس وقال له : « والآن يا سيدى الرئيس أحب أن أعرف رأيك » فأجابه بعد أن أخذ المخطوط من يده : « أقسم غير حانث — أو فلاغص بهذا القدح — أنها لا تقل شأنًا عن أية قصيدة صادقتها فى حياتى » ؛ ثم طوى القصيدة ووضعها فى جيب المؤلف وقال « ويخيل إلى أنها ستشرفك كثيرا حين تنشر . إن الكتاب يعرف من عنوانه ؛ فحسبنا هذا . لقد اكتفينا » . وحاول المؤلف مرتين أو ثلاثا أن يخرجها من جيبه ، ولكن الرئيس كان فى كل مرة يمنعه من إخراجها حتى اضطر آخر الأمر على الرغم منه أن يجلس مكتفيا بالمديح الذى دفع ثمنه مقدما .

ولما سكنت هذه العاصفة القوية بدل أحد الجماعة موضوع الحديث بأن

قال إنه يعجب كيف تصل الغباوة بإنسان أيا كان إلى حد يسمح له أن يكتب الشعر في هذا الوقت الذي لا يكاد النثر فيه يجزى كاتبه! ثم قال: « هل تصدقون أيها السادة أنى في الأسبوع الماضى كتبت ست عشرة صلاة ، واثنتى عشرة فكاهة بذيئة ، وثلاث مواعظ ، ولم أنل على كل واحدة منها إلا نصف شلن ؟ وأعجب من هذا أيها السادة أن بائع الكتب الذى عقد هذه الصفقة قد خسر فيها ، مع أن موعظة واحدة كانت في الأيام الخالية كفيلة بأن تجعلنى رئيس كنيسة ؟ أما الآن فإننا للأسف قد عدنا التقوى والذوق وروح الفكاهة ، وأصدقكم القول أيها الإخوان أنه إذا لم يختم هذا الفصل من السنة بأحسن مما بدأ به ، وإذا لم ترتكب الوزارة من الأغلاط ما نستطيع أن نتخذة موضوعاً جديداً للطعن عليها ، فإنى سأعود إلى عملى القديم وأترك الاشتغال بالأدب . »

وأجمع أعضاء النادى كلهم على أن الفصل من أسوأ الفصول التى صرت بهم في السنين الأخيرة ، وقال واحد منهم إن الأعيان بنوع خاص لم يكونوا في وقت ما أشد تقثيراً مما هم في هذا الفصل . « لقد كنت ألزم الواحد منهم كظله ، ومع ذلك فلم أفلح في أن أحصل في الأسبوع على اشتراك واحد في كتابى ، ولست أعرف لهذا سبباً ؛ ولقد أصبحت ييوت العظماء أمتع من الحصون على الحدود في منتصف الليل ، ولم أعد أرى باب واحد منهم وقد فتح بمضنه إلا رأيت في الجزء المفتوح بواباً أو خادماً فظاً يعترض الداخل ؛ ولقد ذهبت بالأمس لأعرض على واحد منهم أن يشترك في كتاب جديد ، ووقفت عند بابه طوال الصباح ، فلما رأيته يهيم بركوب عربته وضعت الطلب بنفسى في يده مطوياً في صورة خطاب موجه منى إليه فألقى

نظرة سريعة على العنوان ، ولما رآه مكتوباً بخط لا يعرف صاحبه ناوله إلى خادمه الخاص ، وفعل به هذا الخادم ما فعله به سيده ، فأعطاه للبواب ، وأخذ البواب عابسا ونظر إلى غاضبا وأعادته إلى من غير أن يفتحه .
وصاح رجل صغير الجسم بلهجة غريبة : « ألا فليُلق الأعيان كلهم في الجحيم . لقد عاملوني من وقت قريب معاملة دنيئة ، وسأقص عليكم ياسادتي أنه من زمن غير بعيد عاد رجل سري عظيم من أسفاره فجلست إلى مكتبي :

وهزرتة بقصيدة لو أنها تليت على الصخر الأصم لأغدقا^(١)
فلقد صورت فيها البلاد كلها تستقبله عند عودته إلى بلده ، ولم أنس أن أذكر ما أصاب الأدب في إيطاليا وفرنسا من خسارة جسيمة ، بعد أن سافر منهما ؛ وكنت أظن أن أقل ما سألناه منه هو تحويل على أحد المصارف ، ولففت القصيدة في غلاف مذهب وأعطيتها لخادم وسيم من خدم النبيل ليوصلها إليه ، بعد أن نفخته بآخر ربع جنيه كان معي . ووصلت القصيدة إليه سالمة ، وغاب عني الخادم أربع ساعات كنت في أثناءها أنتظره على أحر من الجمر ، ثم عاد إلى يحمل خطابا من الرجل العظيم يبلغ طوله أربعة أضعاف قصيدتي . وفي وسعك أن تتصور ما كان يجيش في صدري من الأمل وأنا في انتظار عودة الرسول ، ولم أكد أراه حتى اختطفته منه الرسالة بيد مرتجفة ، ووضعها أمامي مغلقة زمنا ما ، كنت في أثناءه أفكر فيما تحتويه من ثروة طائلة ، ثم فتحتها فإذا تظنون أيها السادة أني

(١) في الأصل الإنجليزى « تستدر اللبن من العصفور » والبيت من شعر المرحوم حافظ بك إبراهيم من قصيدة له يحيى بها هلال العام الهجرى الجديد عام ١٣٢٨

وجدت فيها ؟ أقسم غير حاث أن الذى أرسله إلى النبيل ثمنا لقصيدتى لم يكن تحويلا على مصرف ، بل ست قصائد كل واحدة منها أطول من قصيدتى ، أرسلها أصحابها إليه يهنئونه مثلى بسلامة الوصول .

وصاح عضو آخر من أعضاء النادى كان قد بقى إلى ذلك الوقت صامتا لا ينبس ببنت شفة : « إن هؤلاء الأعيان لم يخلقوا إلا ليفسدوا علينا أمرنا نحن المؤلفين ، وهم لا يقولون مضايقة لنا عن رجال الشرطة . وسأقص عليكم أيها السادة قصة أؤكد لكم أنى صادق فيها . لما أخرجت كتابى الأول كنت مدينا لخياطى بثمان حلة ، وليس هذا ياسادتى بالشئ الجديد على المؤلفين كما تعلمون ، وليس هو مقصورا على وحدى . وسمع الخياط أن كتابى قد لقي رواجا عظيما ، فأرسل إلى يطالبنى بدينه ، وأصر على أن يتقاضاه من فوره . وكنت فى ذلك الوقت غنيا بشهرتى لأن كتابى قد انتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، ولكنى كنت فقيرا فى المال ، ولم أستطع أن أؤدى الدين ، ورأيت من الحكمة ألا أغادر غرفتى لأنى فضلت سجننا أختاره لنفسى فى دارى عن سجن يختاره لى الخياط فى خارجها . وبذل رجال الشرطة كل ما لديهم من حيلة لإخراجى من معقلى الحصين ، وحاولوا أن يحددونى بقولهم إن رجلا من الأعيان يريد أن يتحدث إلى فى الحانة المجاورة لمنزلى ، وجاءونى برسالة عاجلة من عمى التى تسكن الريف ، وأرسلوا إلى من يخبرنى أن صديقا عزيزا يحتضر وأنه يريد أن يودعنى الوداع الأخير ، ولكن ذلك كله لم يجدهم نفعا ، وذهبت كل جهودهم أدراج الرياح . لقد كنت كالأصم ، فاقد الإحساس ، متحجر

القلب كالصخر ، ولم يجد رجال الشرطة سبيلا للتأثير في ، وبذلك احتفظت بحريتي بملازمة حجرتي .

وأفلحت في هذا أسبوعين كاملين ، وفي صباح أحد الأيام جاءني رسالة كريمة من نبيل واسع الثراء عظيم الجاه ، يقول فيها إنه قرأ كتابي ، وإنه شديد الرغبة في رؤية مؤلفه ، وإن لديه مشروعا قد يعود على بالخير الكثير . وقرأت الرسالة بتدبر وإمعان ، ولم أتبين فيها غشا أو خداعا ، لأن الورق الذي كتبت عليه كان مذهب الأطراف ، وقيل لي إن حاملها رجل أنيق تعرف في وجهه نضرة النعم . ويشهد الله أن قلبي كاد يطير فرحا حين عرفت مالى من شأن خطير ، وتصورت ما سوف ينتظرني من سعادة ، وأخذت أمتدح ذوق هذا العهد الذي لا يضمن على العباقرة أمثالي بالتشجيع ، وأعددت خطبة رائعة تحوى ثناء عاطراً على النعم ، وثناء على نفسى أقصر منه وأكثر تواضعاً . وركبت في صباح اليوم التالى عربة لأصل بها إليه في الموعد المحدد ، وأمرت السائق أن يتجه إلى الشارع وإلى البيت اللذين كتبنا في خطاب النبيل . واحتطت للأمر فأغلقت شباك المركبة لأحجب نفسى من أنظار المتطفلين ، وخيل إلى من عظيم أملى أن المركبة لا تسير بالسرعة الواجبة . وأخيراً حلت الساعة المرتقبة التى تصل فيها العربة إلى آخر رحلتها ، ففتحت النافذة لكي ألقى نظرة على قصر النبيل الفخم وموقعه . ولكننى رأيت ، ويا هول ما رأيت ! أننى لست في شارع راق جميل بل في زقاق ضيق حقير ، ولم أر بابا لدار نبيل بل باب سجن احتياطى . فعرفت أن السائق كان طوال الوقت يسوقنى إلى باب السجن لا إلى باب بيت الشريف ، وأبصرت الشرطى المتجههم الوجه مقبلاً نحوى ليلقى القبض علىّ «

وبعد فهذه فئة من أهل هذه البلاد أبعث إليكم بوصفها ، وقد ترون أن الحوادث التي رويتها ليست بذات شأن ، ولكن الفيلسوف لا يرى أن حادثة مهما كانت تافهة غير جديرة بعنايته ، فهو يجد فائدة ولذة في الحوادث التي لا يعنى بها سائر الناس لأنهم يظنونها حقيرة ، غير جديرة بالعناية ، وفي وسعه أن يصل بدراسة عدد كبير من هذه الحوادث الفردية الخاصة العديمة القيمة في نظر الناس إلى أحكام عامة . وهذا على ما أعتقد هو الذي يبرر ما أرسله إلى الصين من وصف أخلاق أهل هذه البلاد وعاداتهم وسخافتهم ؛ وهي — وإن كانت صغيرة تافهة في ذاتها — أصدق دلالة على خصائص هذا الشعب من قصص معاهداته وبلاطه ووزرائه ومفاوضاته وسفرائه .

أدب الحديث

بقلم

وليم كوپر William Cowper

١٨٠٠ — ١٧٣١

[كان في حداثة سنه ضعيف الجسم شديد الحساسية ، وكانت أيام دراسته كلها بؤساً ومرضاً . وقد عرضت عليه في عام ١٧٦٣ وظيفة كتابية في مجلس اللوردة فرفضها لحيائه الشديد وخوفه من الظهور ؛ وأثر ذلك في نفسه ، وقوى هذا الأثر بسبب شكوكه الدينية ، فاضطربت قواه العقلية وحاول الانتحار . وظلت نوبات الجنون بعدئذ تنتابه من حين إلى حين طوال حياته ؛ وكانت الست السنين الأخيرة منها جنونا متواصلا . ونشر كوپر الجزء الأول من ديوان شعره في عام ١٧٨٢ ، ثم ترجم أشعار هوميروس إلى الإنجليزية . وشعره مزيج من القديم والحديث ، ويمتاز بما فيه من فكاهة وشعور رقيق ونزعة أخلاقية سامية . ولكن الكثير منه تسرى فيه روح الحزن والكآبة الناشئة من حياة العزلة والاضطراب العقلي . أماثره فيشمل عدة مقالات ورسائل بليغة سهلة جميلة ، وهي من خير ما كتب في اللغة الإنجليزية] .

مثلت من عهد قريب في أحد ملاهي باريس مسرحية لاقت نجاحا كبيرا وأعيد تمثيلها عدة ليال متوالية ؛ وكان من أشخاصها رجل

إنجليزى أخص صفاته أنه لا يتقن فن الحديث ، فلا يكاد كلامه كله يتعدى تكرار هذه التحية المألوفة « كيف حالك ؟ » . والحق أن الإنجليز كثيراً ما يوصفون بأنهم قوم كتومون متحفظون ذوو مزاج نكد ، فى حين أن الفرنسيين الثرارين كثيراً ما يوصفون بأنهم يتقنون فن الحديث إتقاناً لا يجاريهم فيه غيرهم من الأمم ؛ فالإنجليزى كالساعة تقف إذا لم تُدر لولبها لتلاها باستمرار ؛ أما الفرنسى فكالمنبه الذى يدق على الدوام . على أننا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقر أن الإنجليز يختلفون فى طريقة حديثهم باختلاف أمزجتهم . أما الأمة الفرنسية فتتحدث كلها بطريقة واحدة ، لافرق فى ذلك بين خاصتها وعامتها ، وإذ لك لترى أحياناً رجلين من الحلاقين الفرنسيين يخاطب أحدهما الآخر فى الطريق بطلاقة اللسان وحركات اليد والوجه التى يتحدث بها رجلان من رجال البلاط فى قصر التويلرى ^(١) .

ولست أريد أن أضع قواعد خاصة يراعيها كل متحدث ، وحسبى أن أشير إلى بعض الأغلاط الشائعة فى أحاديث الناس وسلوكهم ، وهى التى تجعل صحبة نصفهم على الأقل مدعاة للملل والسآمة ، بدل أن تكون من أسباب السرور والبهجة . ومما يؤسف له أننا لا نجد الحديث فى الأوساط التى كنا ننتظر أن يبلغ فيها غاية الجودة والإتقان ، أى بين أفراد الطبقات الراقية . وسبب ذلك أنهم يصرفون كل وقتهم فى لعب الورق ، حتى قال لى بعضهم إن كتابنا المحدثين لا يفلحون فى ابتكار الأحاديث التى يحتاجونها فى

(١) قصر التويلرى مسكن ملوك فرنسا ؛ وقد شهد كثيراً من مآسيهم . هاجمه الشعب فى أثناء الثورة الكبرى وفى أثناء حوادث ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١ وانتهى عهده من حيث هو مسكن للملوك بعد موقعة سيدان ، وتوجد فى مكانه الآن حديقة التويلرى المشهورة .

مسرحياتهم ، لأن الطبقات العليا من الأمة لا تكاد تجتمع إلا على مأدعة
الميسر ، ولأن حديثها كله يدور بطبيعة الحال حول أفانين اللعب وخداع
اللاعبين ، ومن الحكيم المأثورة لدى هذه الطائفة من الناس ولدى السكيرين
أن الحديث يتلف الصحبة .

وليس في الناس من لا يحاول بكل ما في طاقته أن يكون لطيفاً محبوباً
في المجتمعات ؛ ولكن كثيراً ما يحدث أن الذين يبذلون قصارى جهدهم
ليكونوا « نجوماً ساطعة في سماء الحديث » يَعدون فيه طورهم . ومن
واجب الإنسان مهما يكن ناجحاً موقفاً في حديثه ألا يستأثر بالحديث لنفسه ؛
فعلينا أن نجعل الحديث كالكرة الصغيرة تتلقفها الأيدي يدأ بعد يد ،
لا ككرة القدم ندفعها أمامنا دفعاً . ومن واجبنا كذلك أن نجعل حديثنا
ملاءماً لأحوال من نتحدث إليهم فلا ننطق باليونانية في حضرة السيدات
ولا نتحدث عن آخر نمط من الأزياء في حضرة قضاة الريف .

وما من شيء يُظهر الحديث كله بمظهر السخف البالغ أكثر من بعض
الصفات الخاصة التي يسهل اعتيادها ويصعب التغلب عليها أو التخلص منها ؛
وسأحاول أن أظهر هذه السخافات بمظهرها الحقيقي ، وذلك بأن أذكر منها
ما هو أكثر من غيره شيوعاً بين الناس . وسأبدأ بذكر أولئك الذين
أُطلق عليهم اسم المتأقين والمصعرين خدودهم الذين لا ينطقون بكلمة
إلا ومعها حركة من حركات اليد أو الوجه ، فهم يهزون أكتافهم علامة
على الرضا ، ويشنون رقابهم دليلاً على الرفض . ويلوون أشداقهم ليظهروا
الغضب ، ويضربون الأرض بأرجلهم إظهاراً للسرور ، أولئك في الحقيقة
ممثلون هازلون وليسوا متحدثين ، أخذوا قواعد البلاغة عن اللاعبين

على الحبال ، ويجب أن يحكم عليهم بأن يقضوا حياتهم في معارض الصم ، لا يتكلمون إلا مع صورهم في المراة ، وأن يحشروا هم والبسّامون المتنطعون الذين يغيرون معارف وجوههم حسب ما ينطقون به من الألفاظ . ومن هذا الصنف أيضاً المقلدون الماخنون الذين لا يفتنون بما كونه أصوات من يعرفون من الناس وحركاتهم أسوأ تقليد . وما أشبههم في هذا بصغار المصورين الذين يضطرون في كثير من الأحيان أن يكتبوا اسم ما يصورون لكي يعرف الناس حقيقته .

هذه طائفة من الناس فصاحتهم كلها محصورة في حركات أجسامهم ، وهم يتكلمون أكثر ما يتكلمون بأيديهم وأرجلهم . ثم تأتي بعدهم طائفة أخرى هي طائفة المتحدثين المحترفين ؛ وتشمل هذه الطائفة أولاً المؤكدين الذين يعصرون ، ويضغطون ، ويدفعون من أفواههم ، كل حرف من حروف ألفاظهم ، بكل ما أوتوا من نشاط وقوة ؛ وأعظم ما يمتاز به أولئك الخطباء وضوح ألفاظهم وقوة تعبيرهم ، وأهم ما يؤكدونه من الألفاظ من " وأل " وواو العطف وأمثالها من الكلمات الخطيرة . ويحيل إلى سامعهم أنهم يجدون مشقة كبيرة في إخراجها من حلقهم ودفعها في آذان المستمعين إليهم . أولئك يجب ألا يسمح لهم إلا بحققن آذان الصم — إذا جاز هذا التعبير — من خلال سماعات . على أني لا أنكر أيضاً أن ما يسوءني من هؤلاء يسوءني أيضاً من الهامسين المُسرّين الذين يظنون أن كل من يعرفونهم من الناس صم ، فهم إذا شاءوا أن يتحدثوا منك حتى كأنهم يريدون أن يقيسوا أنوفهم بأنفك ؛ وكثيراً ما يؤذونك برائحة أفواههم الكريهة ؛ ومن رأيي أن يؤمر هؤلاء

بألا يُحَدِّثُوا أَحَدًا إِلَّا عَنْ بُعْدٍ وَمِنْ خَلَالِ بَوق .

أما الفا كهون الذين لا ينطقون إلا بالظريف من الأقوال ، والصّافرون المُنَغَّمون الذين لا يُفَصِّحون قط ، ففي وسعنا أن نجمعهم كلهم في مكان واحد ؛ ولا ضير علينا في أن نضم إليهم الصّاحيين الذين إذا سألوك عن صحتك نادوك بصوت الدالين ؛ وتبقى بعد ذلك البَقَاقَة وهي صفة قد يطبقها الإنسان إذا خرجت من خناجر اعتادت لطف الحديث ورقة الصوت ، وقد تكون أشبه بالموسيقى إذا كان صاحبها جميل الوجه ، أو إذا نطق بها لسان أنثى . أما ذو الصوت الخشن والوجه الغليظ فالسُخْف إذا صدر منه يؤذى السمع كما يؤذيه النشاز من الأصوات . ولقد تحدثت في مقال قبل هذا عن الحَلَّاقِينَ الثَّرَائِرِينَ ، وسأتركهم وشأنهم هنا ، وحسبي أن أشير إلى أنصاف الحَلَّاقِينَ الذين يُقَطِّعون ، ويبترون ، ويفتقون أيمانهم فينطقون ببعضها ويخفون بعضها الآخر . أما السّاخرون المتكلمون الذين يبدلون خلق الله فيسمون الرجل كرنبة وسرطانا وجرواً وسمكة ، فيجب ألا يؤذن لهم بالجلوس مع الناس إلا ومعهم شُرّاح يفسرون أقوالهم .

ولست أريد أن أستنفذ صبر القارئ بتعداد جميع مساوئ الحديث وعيوبه ، ولن أطيل الكلام بنوع خاص على المتحدثين الذين يؤكدون أتفه الحقائق ، ولا يتكلمون إلا جملاً طنانة رنانة ، واللا أدريين^(١) الذين لا يفتنون يقولون إنهم لا يعرفون كم الساعة ؟ وهل تمطر السماء أو لا تمطر ، ومتى يكمل القمر ؟ والشرّاح الذين ينطقون بالغامض من الألفاظ ثم يتبعونها بشرحها فيقولون بعد كل عبارة « أقصد ولا أقصد » . وآخر

(١) لا نعي بالطبع طائفة الفلاسفة المعروفة بهذا الاسم .

من أذكركم الصامتون الذين يخشون أن يفتحوا أفواههم لئلا يصابوا بالبرد ،
والذين يطيعون أمر الإنجيل بنصه فلا يزيدون في حديثهم على قول نعم و لا .
وبعد فإن الاتصال العقول بين الناس عن طريق المحادثة من أهم ما يميز
الإنسان عن الحيوان الأعجم ؛ ولهذا كان من واجبنا أن نستخدم هذه
الموهبة على خير وجه ، فنجعل أعضاء النطق أداة للتفاهم ، ونحاذر أن نتخذها
أسلحة للرديلة أو أدوات للسخف ، ونبدل كل ما في وسعنا للتخلص مما
يتصل بالحديث من عادات حقيرة تحط من قدر هذه الميزة العظيمة التي
اختص بها الإنسان .

ويظن بعض الفلاسفة أن الطيور والحيوانات نفسها تتفاهم فيما بينها
بالأصوات التي تخرج من أفواهها ، وإن لم يكن في وسعها أن تجعل من
هذه الأصوات ألفاظا واضحة ؛ وهم يقولون إن للكلاب والقطط وأمثالها
لغات مختلفة خاصة بها ، شأنها في ذلك شأن الأمم سواء بسواء ، ويؤكدون
أن البلبل الإيطالي يدرك نغمات البلبل في تلك البلاد ، كما تدرك اذن
الموسيقيين الإيطاليين موسيقى بلادهم ؛ ويقولون أيضا إن خنازير وستفاليا^(١)
تقبع من أنوفها كما ينخر سكان ألمانيا العليا من أنوفهم ، وإن الضفادع
في المستنقعات الهولندية تنق نقيقا لا يقل في وضوحه عن غمغمة أهل الأقاليم
المنخفضة من تلك البلاد .

وسواء أكان هذا صحيحا أم لم يكن فإن من حقنا أن نعد أولئك الذين
لا يخضعون ألسنتهم لسلطان عقولهم ، ولا يتحدثون كما يتحدث بنو
الإنسان ، أشبه الناس بالحيوان . فالشبه الكبير بين الثرثارين والقردة ،

(١) إحدى مقاطعات ألمانيا .

والهاذرين والبيغاوات ، أوضح من أن يخفى على أحد . والناخرون
والمدمدمون أشبه الناس بالخنازير ، والساخرون أشبههم بصغار الكلاب
التي تكشف عن أسنانها ولا تعض بها ، والصخابون كالقطط البرية لا تطيق
أن يُمسح شعرها باليد وتموء إذا صادفت شيئاً يَسُرُّها ، والشاكُّون
المتذمرون يوم ناعق ؛ والنقاد بوجه عام أفاع سامة يسرها صفيها ؛
وأولئك الذين حفظوا عن ظهر قلب بضع عبارات فنية لا يفقهون لها
معنى ، ويردّدونها في كل مناسبة هم واللقاق سواء . أما أنا الذي
أسمعت صوتي أهل هذا البلد طوال السنين الثلاث الماضية ، فقد أكون
أشبه بالديك ، ولكنني إذا ذكرت لهم بأنهم سيسمعون مني آخر صيحة
بعد أسبوعين من هذا اليوم ، فإنني أرجو أن يعدوني كالبيعة^(١) التي يقولون
عنها إنها تغني بصوت شجي في آخر ساعة من ساعات حياتها على
هذه الأرض .

(١) من الاعتقادات الشائعة أن البيعة إذا دنا أجلها انتحت ناحية وأخذت تغني
بنغمة شجية حتى تموت . (المعرب)

أصل الشواء

بقلم

تشارلس لام Charles Lamb

١٧٧٥ - ١٨٣٤

[ولد من أبوين فقيرين في مدينة لندن ، وكان طول حياته صديقا للشاعر الكبير كولردج ، وقد وصفه هذا الصديق بأنه « غلام ظريف محبوب ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة في لسانه لكنة » . وقضى لام عدة سنين كاتبا في المركز العام لشركة الهند الشرقية ، وبقي فيه حتى اعتزل الخدمة سنة ١٨٢٥ وخصص له معاش يكفيه . وفي عام ١٧٩٦ حدثت في الأسرة مأساة كان لها أعظم الأثر في حياته . ذلك أن أخته ميرى (وهي التي يرد ذكرها في مقالاته باسم ابنة العم بردجت Cousin Bridget) انتابتها نوبة فجائية من الجنون قتلت فيها أمها وجرحت أبها . ومن ذلك الحين قرر تشارلس أن يكرس حياته كلها للعناية بأخته ، وألا يتزوج قط . وكانت النوبات تعاود أخته من حين إلى حين ، فكان يعنى بها بنفسه ، ويأخذها إلى المستشفى بيده . وأثر في لام موت صديقه كولردج فاعتلت صحته ، وسقط على الأرض وهو سائر في الطريق ، فجرح في وجهه وتسمم الجرح فمات .

ولام ذو مقام ممتاز في النقد وإنشاء المقالات الأدبية ، ولا يضارعه من كتابها إلا أدسن . على أن أدسن نفسه ينقصه الشعور بالمرهف ورقة

الحاشية اللذان يمتاز بهما لام . وهو يدخل شخصيته في كتاباته ، ولا يخفى على القارئ شيئاً من عيوبه الخلقية والجسمية . ويقترن اسم لام باسم كتابه الذائع الصيت « قصص من شيكسبير » ، وقد اشتركت معه في كتابتها أخته ميري ، فكتب هو المآسى وكتبت هي الملاحى . لكن مقامه في الأدب يقوم على مقالات إليا Essays of Elia التى نشرها تباعاً فى مجلة لندن The London Magazine ، والتى جمعت بعد ذلك فى مجلدين . و « إليا » اسم زميل للام فى المركز العام لشركة الهند ، انتحلها لام لنفسه ليوقع به مقالاته [.

١٧

جاء فى أحد الكتب الصينية المخطوطة ، وهو كتاب تفضل على صديق م . بقراءته لى وشرحه ، أن الناس كانوا فى السبعين ألف عام الأولى من حياتهم على ظهر الأرض يأكلون اللحم نيئاً ، يقتطعون من الحيوان حياً بأظفارهم ، أو ينهشونه بأسنانهم ، كما يفعل سكان الحبشة فى هذه الأيام ^(١) . وقد أشار إلى هذا العهد إشارة غير خفية فيلسوفهم الكبير كنفوشيس فى الفصل الثانى من كتابه المسمى « تقلبات الدنيا » حيث يطلق على العصر الذهبى من عصور الصين إسم (شوفامج) ومعناه « عيد الطباخين » . ويقول المخطوط بعد ذلك إن الصينيين كانوا أول من عرف الشواء ، وإن ذلك كان بالطريقة الآتية :

خرج هوتى راعى الخنازير ذات صباح إلى الغابة كعادته فى كل يوم ، ليجمع منها ثمار البلوط ويطعم بها خنازيره ، وعهد بحراسة كوخه إلى ولده (١) لا حاجة إلى القول بأن أهل الحبشة لا يفعلون ذلك .

الأكبر بوبو ، وهو غلام بليدٌ مولع باللعب بالنار شأن سائر الغلمان في سنه .
وبينا كان بوبو في عبثه إذ تطاير بعض الشرر وأشعل النار في كومة من
الكلا الجاف ، وامتدت النار من الكومة إلى الكوخ الحقير ، فلم تكن
إلا ساعة من زمان حتى أتت عليه كله . ولم يكن احتراق المسكن أمرا
ذابال ، فقد كان كوخا حقيرا لا يختلف في شيء عما كان يقيمه الناس قبل
عهد الطوفان ؛ أما الأمر الخطير حقا فهو أنه كان إلى جوار الكوخ حظيرة
للخنازير بها تسعة من صغارها الجميلة ، ولدتها أمها من زمن قريب ؛
واحترقت الحظيرة بما فيها عند احتراق الكوخ ؛ وكان احتراقها كارثة
عظيمة ، لأن الخنازير الصينية مشهورة في جميع أنحاء العالم من أقدم
العصور بجودة لحمها ولذة طعمه . وسقط في يد الصبي واستولى عليه
الخوف ، ولم يكن ذلك لاحتراق العشة ، فقد كان في وسعه هو وأبيه أن
يعيدا بناءها في ساعة أو ساعتين بقليل من الأغصان الجافة . لكن الذي
روعه وأذهب عقله هو احتراق الخنازير . وبينا هو يفكر فيما عسى أن يقوله
لأبيه ، ويضرب يدا بيد فوق الدخان المتطاير من بقايا أحد هذه الضحايا
المحترقة ، إذا برائحة طيبة لم يشم مثلها من قبل ، تدخل في خياشيمه . ولم
يعرف الصبي مصدر هذه الرائحة ، وكل ما كان واثقا منه أنها ليست صادرة
من العشة المحترقة لأنه لم يشم رائحة مثلها من قبل ، فلم تكن هذه أول مرة
حرق فيها العشة ، بل كان احتراقها حادثا كثير الوقوع بسبب إهمال
هذا الصبي المشؤم . كذلك لم تكن تلك الرائحة شبيهة برائحة عشب
أو زهر أو نبات معروف . وأحس الصبي في الوقت نفسه بلعابه يسيل
ويبلل شفته السفلى ، فحار في أمره ولم يدر ما يفعل ، ثم انحنى على أحد

الخنزير يريد أن يعرف هل لا تزال فيه بقية من حياة ، فاحترقت في أثناء ذلك أصابعه ، وأراد أن يبردها فوضعها في فمه كما يفعل سائر المتوحشين من بنى الإنسان .

وكانت أصابعه قد لصقت بها قطع صغيرة من الجلد المحترق ، فذاق طعم الشواء لأول مرة في حياته — بل في حياة العالم كله لأن أحدا لم يكن ذاق طعمه من قبله — ، وانحنى على الخنزير مرة ثانية وقلبه بيديه ؛ ولم تحترق أصابعه في هذه المرة كما احترقت من قبل ، ولكنه لحسها للمرة الثانية بحكم العادة . ولاحث الحقيقة أخيراً لخياله البليد ، فأيقن أن الرائحة صادرة من الخنزير ، وأن الطعم الشهى طعم جلد الخنزير ، فاندفع بكليته ينتهب اللذة الجديدة انتهاباً ، وأخذ يقطع بكليتا يديه كتلاً كبيرة من جلد الخنزير ولحمه ، ويلقيها في فمه على عجل . وأدركه أبوه في هذه الساعة ويده عصا ضخمة ، فرأى ما حل بعشته وخنزيره ، فهوى بعصاه على كتفى ولده الخبيث ، وأخذ يكيل له الضربات تباعاً . ولكن بوبو لم يلق باله إليها كأنها كانت ذباباً يتطاير على كتفيه . ذلك بأن اللذة التي كان يشعر بها في أعماق بطنه جعلته لا يحس بشيء مما يصيب هذا الجزء الأعلى من جسمه ؛ وظل والده يضربه ، وظل هو يلتهم لحم الخنزير حتى لم يبق منه شيء . وعندئذ فقط أدرك ما كان حوله ، ودار بينه وبين أبيه الحديث الآتى أو ما يشبهه :

— ما هذا الذي تلتهمه أيها الغلام الخبيث ؟ لقد حرقت بعثك هذا ثلاثة بيوت ، وكان جديرا بك أن تُسَمِّق عقاباً لك على فَعَلتكَ ، ثم لم يكفك هذا بل أخذت تأكل النار وتأكل معها هذا الشيء الذي لا أعرفه .

أجب وقل لى ماذا كنت تفعل ؟

— أى أبى ! الخنزير ! الخنزير ! بحقك أقبل لتعرف بنفسك ما أفعل !

« ألا ما أشهى لحم الخنزير ! »

وارتاع هوتى حين سمع كلام ولده ، وأخذ يسبه ويسب نفسه لأنه

جاء إلى هذا العالم بولد يأكل لحم الخنزير المحترق .

وغلب على بوبو نهمة فجر من النار خنزيراً آخر ومزقه شطرين ، ووضع

أصغرها فى يدي هوتى وصاح به « كل ! كل ! كل ! كل الخنزير المحروق يا والدى !

ذق طعمه ! يا رباه ما ألدّه ! » إلى غير هذه من العبارات الوحشية التى كان

يقولها وهو يدفع اللحم إلى معدته دفعا غير عابى بما قد يصيبه منه .

واضطرب هوتى وهو يقبض بكليتا يديه على لحم الخنزير ، وارتعدت

فرائصه من شدة الرعب ، وأوشك أن يقتل ولده جزاء له على هذا الفعل

الذميم الذى لا تفعله إلا الوحوش الضارية . وبينما هو يهيم بذلك ، إذا به

يحس بأصابعه تحترق من حرارة لحم الخنزير ، كما احترقت أصابع ولده من

قبل . وعالجها بما عالجها به «بوبى» ، فذاق طعم الجلد المشوى ، ولكنه لوى

وجهه وتصنع الغضب ، وإن كان ذلك لم يقلل من شعوره بلذة هذا

الطعام الجديد .

وقصارى القول أن الولد وأباه جلسا معاً يلتهمان لحم الخنازير المحترقة ،

ولم يغادرا مكانهما حتى أتيا على كل ما كان باقياً منها .

وحذر هوتى ولده من إفشاء السر لأن الجيران إذا علموا بأمرهما

سيرجونهما بالحجارة كما ترحم الشياطين . وهل هناك من الأعمال ما هو

أسوأ من التفكير فى تغيير طبيعة اللحم الطيب الذى أرسله الله للناس ؟

لكن أخباراً غريبة أخذت مع ذلك تذيع ، فقد رأى الناس أن عشة هوتى

كانت تحترق أكثر من ذى قبل ، فكانت النار تشتعل فيها كل يوم ، نارة

فى النهار وتارة فى الليل ، وكانت الحرائق تزداد كلما ولدت فىها خنازير جديدة وأغرب ما فى الأمر أن هوى لم يعد يعاقب ولده على إحراق عشته ، بل كان يزداد فى كل يوم حُبًّا له وعطفًا عليه . وأخيراً أخذ جيرانه يراقبونه حتى كشفوا السر الرهيب ، وسبق الوالد وولده إلى ساحة القضاء فى بكين ولم تكن إذ ذاك مدينة كبيرة . وشهد الناس عليهما بارتكاب الجريمة ، وجيء بالطعام الكرىه نفسه أمام المحكمة ، وأوشك المحلفون أن ينطقوا بإدانتهم ، ولكن كبيرهم طلب قطعة من الخنزير المحترق الذى يحاكم المجرمان لأكله . وأعطى اللحم وأخذ يقلبه ، وأخذ المحلفون يقلبونه معه ، واحترقت أصابعهم كما احترقت أصابع بوبى وأصابع والده ، وعالجوها بنفس العلاج الذى أوحى به إليهم غريزتهم . وما كان أشد دهشة القضاة كلهم ودهشة سكان المدينة والأجانب ومراسلى الصحف والحاضرين جميعاً ، حين نطق المحلفون بالحكم من غير أن يتركوا ساحة المحكمة أو يختلوا للمداولة ، فإذا هو يقضى ببراءة المتهمين رغم ثبوت الجريمة عليهما بالأدلة القاطعة .

وكان القاضى رجلاً ذكياً فغض النظر عما فى هذا القرار من مخالفة صريحة للعدالة ؛ ولما انفضت الجلسة خرج من المحكمة وأخذ لنفسه كل الخنازير التى استطاع أن يحصل عليها بماله أو بجأه . ولم تمض على ذلك إلا بضعة أيام حتى شوهد بيت فضيلة القاضى نفسه يحترق ؛ ولم يبق الأمر بعد ذلك سراً مكتوماً ، وانتشرت الحرائق فى كل مكان فى المدينة ، وارتفعت أثمان الخنازير وأثمان الوقود فى جميع أحيائها ، وأفلست شركات التأمين واحدة بعد واحدة لكثرة ما نشب فى المدينة من الحرائق ، وأقفلت أبوابها ؛ وقلت متانة البناء يوماً بعد يوم حتى خشى الناس أن ينعدم هذا الفن من

العالم . واعتاد السكان إحراق المنازل ، وظلت هذه العادة قائمة حتى جاء حكيم
عظيم — كما يقول الكتاب المخطوط — من أمثال لكّ الفيلسوف الإنجليزى
الكبير ، فعرف أن لحم الخنازير ولحم سائر الحيوان يمكن أن يطهى
— أو يحرق كما هو النص بالضبط — من غير حاجة إلى إحراق البيت كله . وفى
ذلك الوقت اخترعت آلة للشواء ساذجة ، ثم اخترعت بعد مائة عام أو مائتين
من ذلك الوقت طريقة الشويّ بالخيط أو السفود ؛ ولست أعرف بالضبط فى
عهد أية أسرة من الأسر الصينية كان اختراعها . ويعلق المخطوط على ذلك
بقوله : إن أنفع الفنون وأبسطها فى الظاهر تنتشر بين الناس بهذه الخطى البطيئة
هذا ما يحتويه الكتاب المخطوط ، ولست أدعى أنى واثق من صدق
روايته فى جملتها وتفصيلها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه إذا كانت هذه
العادة الخطرة ، عادة إحراق البيوت عمداً ، هى التى نشأت عنها معرفة الناس
بفن الشواء ، فإن فيه ما يبررها ويذهب بكثير من أضرارها .

أغلاط شائعة

بقلم

تشارلس لام

١٨

١ — لا يفعل الجميل إلا ذو الوجه الجميل

لا شك أن الذين يقولون هذا القول لم يروا قط الأنسة س .

يقول الفلاسفة الأقدمون إن الروح شعاع من الجمال القدسي يهبط من السماء إلى الأرض ، وإنها كلما زاد نصيبها من سناء الباهر زاد أثرها في غلا فيها المادى حتى تهبطه لسكنائها وتجعله متفقاً مع طبيعتها .

فإذا صح ذلك كان علينا أن نحكم بلا تردد أن روح الأنسة س قبل أن تهبط إلى هذه الأرض لم تكن موقفة في اختيار الجسم الذى حلت فيه .

وفي هذا المعنى نفسه يقول الشاعر اسپنسر فى نشيد له يحيى به الجمال :

« كلما زادت الروح صفاء ، وزاد نصيبها من نور السماء ، زاد حرصها

على اختيار الجسم الجميل لتحل فيه وتزينه ، وتسبل عليه ثوباً من الرقة والبشاشة ، وليس من ينكر أن الجسم يكون كما تكون الروح ، لأن الروح

هى الأصل ولولاها ما كان الجسم »

وما من شك فى أن اسپنسر الذى يقول هذا القول لم يرقط الأنسة

س ، وعندى أنه يحسُن بنا ألا نأخذ آراءنا فى الفلسفة عن هؤلاء الشعراء

وحجتى فى ذلك أن اسپنسر نفسه يقول فى آخر هذه القصيدة قولاً غريباً
لا تدرى معه أى القولين تصدق . وهذا هو ما يقوله بنصه :

« وكثيراً ما نرى العقول الجميلة محتبسة فى أجسام مشوهة ، ولعل
المصادفة المحضة هى التى ألقّت بها فيها رغم طبيعة الأشياء ، أو لعل المادة
التي خلقت منها هذه الأجسام كانت صلبة جامدة استعصت على العقول ، فلم
تستطع تشكيلها بما يلائمها فظلت على حالها مشوهة قبيحة » .

ويحى لنا أن نستدل من هذا القول على أن اسپنسر قد رأى إنساناً
يشبه الأنسة س .

وما من شك فى أن روح هذه السيدة قد أوقعها سوء الطالع فى جسم
من هذه الأجسام المشؤومة ، التى يتحدث عنها اسپنسر فى هذه الفقرة الثانية .
ولم أشاهد فى حياتى عقلاً من العقول الجميلة — وأقسم أن عقل الأنسة س
من أجل العقول — صادف طينة صلبة مستعصية على التشكيل كما صادف
عقل هذه الأنسة . إن الذى ينظر إلى وجهها يحكم من فوره بأنه أحسن
قبح مستطاع . ذلك أنه إذا كان لا بد أن يكون الإنسان قبيح الوجه
خير له أن يكون هذا القبح شاملاً لكل جزء من أجزائه ، بدل أن يكون
مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر . وليس من الناس من يستطيع أن
يتهم الأنسة س بأن وجهها يكون خيراً مما هو ، لو كان أنفها أو فمها غير
ما هو فى الواقع . ولقد رأينا ذوات الجمال من بنى جنسها فى أشد الحيرة
لا يدرين أى معارفها أقبح . ذلك أن الأثر العام الذى تحدثه فيمن يراها
أثر يجلب عن التفصيل ؛ فهو أثر شامل — منسجم إذا جاز أن نعبر عنه هذا
التعبير — لا يقبل هذه التحفظات والاستثناءات البغيضة ، حتى ليخيل

إليك حين تنظر إليه أن مثَّالاً من اليونان الأقدمين طاف ببلاده فاختار من أقبح أهلها وجوهاً شفة من هنا وذقناً من هناك ، وأنفاً من هذه الناحية وعيناً من تلك ، وصاغ منها كلها نموذجاً للقبح . فهو قبح متناسب منسجم بعضه مع بعض ، يعجز أعظم الخبراء عن أن يختار له أقبح مما فيه ، أو أن يقول إن هذا الجزء أو ذاك قد وضع في غير موضعه . ونحن من الذين يؤمنون بأن القبح الحقيقي كالجمال الحقيقي أثر من آثار الانسجام ، وأنه مشَّله أيضاً لا يطبق له منافساً أو شريكاً . ولم ير أحد الأنسة س إلا حكم من فوره بأنها أقبح امرأة لقيها في حياته . وإن الساعة التي تحظى فيها برؤية وجهها لتعد من الساعات التي لا تنساها قط طول حياتك ؛ فأنت يسرك أن قد رأيتها ، كما يسرك أن قد رأيت أبا الهول . وليس في الناس من يستطيع الادعاء بأنه نسيها بعد إذ رآها ، ولم يحدث قط أن اعتذر لها إنسان بأنه لقيها في الطريق يوماً ما ولم يعرفها ، فتلك حجة واهية ؛ كما لا يستطيع أحد أن يخطئها أو يقول لها « أظن أنني رأيت ذلك الوجه في مكان ما ، ولكنني لست أذكره » . فأنت لا شك ذا كرجرة الاستقبال التي رأيتها فيها ، وظننتها أول الأمر تمثالا ، وعجبت أين عثر عليه صاحب الدار ، ثم زاد عجبك حين بدأ التمثال يحرك شفثيه ويحركهما بالكلام الرقيق . ولم يفكر أحد قط في أن يطلب إلى الأنسة س أن تجلس أمامه ليصورها ؛ فالصورة تؤخذ للذكرى ، ومن العبث أن تحتفظ بصورة للذكرى إذا كان صاحبها في غير حاجة إلى هذه الوسيلة المصطنعة ، وإذا كانت صورته لا تمحى من ذاكرتك بعد أن تراه أول مرة . على أن وجه الأنسة س ليس مع ذلك بالوجه الحقير ؛ إن ما فيه من ابتكار ، لا مثيل له في كل الوجوه ،

لئمنعنا أن نصفه بهذا الوصف . وليس هو أيضاً من الوجوه التي تقل قبحاً إذا ما زدها نظراً . فمن الناس الأخيار الذين لم ينالوا نصيباً موفوراً من الجمال من لا يملون من فعل الخير فيخضعون بعملهم هذا أبصارنا ، ويمحون من عقولنا الآثار الصحيحة التي تنقلها إلينا حواسنا ، فتصبح تلك العقول مهيئة إلى البحث عن شواهد دالة على الجمال لم تقع العين عليها عند أول نظرة ، فتنبين الرقة الكامنة تحت الشفة السفلى ، والدعة في نظرة العين اليمنى . أما الأنسة س فإن وجهها يبقى كما هو بعد أن تصنع لك الخير أول مرة . وإذا كررت صنعته ألف مرة ، وأيقنت أنها لا تتردد في أن تضاعف هذا العدد في المستقبل ، لم يتغير وجهها الفذ عما كان عليه حين رأيته في المرة الأولى . وليس في وسعك أن تقول عن هذا الوجه إن الجدرى شوهه ، وإنه لولا ذلك لكان وجهاً جميلاً — وتلك تحية أقرب إلى الذم منها إلى المدح — ، ذلك بأن الأنسة س لم تصب قط بالجدرى ، أو أن إصابتها به كانت إصابة خفيفة . كلا ، إن قبس ذلك الوجه قبس أصيل ، وهو ميزة له اختص بها من بين سائر الوجوه ، وقد عرفت به بين الناس أجمعين .

٢ — صبك من غنى شبع وري

لا يوجد رجل أو امرأة أو طفل يسكن بالقرب من قصور الأثرياء يصدق هذا القول ، بل إن مبتكره نفسه لم يكن يؤمن به ، وإنما قاله ليثأر به ممن لم يدعوه إلى وليمة فاخرة ؛ فهو قول أجوف لا معنى له ، وسفسطة سخيفة ، وكذب صريح ، يخادعوننا به ونحن نعرف أنهم كاذبون . وحسب مائدة الغنى فضلاً أنه يبقى منها ما يشبع ويروى في اليوم التالي وما بعده . وهذا المثل ينتمي إلى طائفة من الأمثال ترى كلها إلى تحقير المال

والإقلال من شأنه ؛ ومن هذه الأمثال ما يقول إن الصحة لا تشتري بالمال ،
ومنها ما يُشَبَّه الذهب بالأقدار ، وما يعيب على الملابس الجميلة أنها تصنع
من صوف الضأن ومما يخرج دود القز ، وما يعيب على اللآلئ أنها أقدار
تؤخذ من بطن الصدف . ومن هذا النوع أيضاً قولهم إن الأرض الزراعية
« طين » ، وهى سفسطة سافرة ، لا تصدق حتى بمعناها الحرفى إلا حين تبتل
الأرض بماء المطر ، أو حين تروى عن قصد لتخرج النبات .

ولسنا نشك فى أن هذه الحكم وأمثالها من الأقوال التى يراد منها أن
تغرس القناعة فى النفوس قد اخترعها مقترض ما كر كان ياتمر بمال جاره
غنى ، ولم يجد له حيلة يحتال بها عليه إلا هذا التلاعب بالألفاظ . وليس
عليك إلا أن تجردها مما صيغت فيه من زخرف اللفظ حتى تتبين ما فيها من
خداع واضح . فشرايح الضأن وأكتافه ، وعصير الفاكهة اللذيذ ،
والكتب النافعة المسلية ، والصور الممتعة ، والقدرة على الأسفار ومشاهدة
بلاد العالم ، والاستقلال وراحة البال ، والتحرر من كثير من القيود ،
وانتفاع المرء بوقته كما يريد ، هذه كلها ليست أشياء تافهة مهما أطلقنا من
الأسماء الحقيمة على ذلك المعدن النفيس الذى يجعلها فى متناول أيدينا .

٣ — ليجى للرجل أنه يفضوك من فظاهاته

ذلك أقسى ما يمكن أن يفرض على الإنسان من التضحية وإنكار الذات .
وهل شىء أقسى من أن يطلب إلى الإنسان أن يقدم الخير للناس ولا يشاركهم
فيه ، وأن يجلس طاويا على مائدته ، وأن يمتدح الطعام الشهى الذى يقدمه
لضيوفه ، ولا يجد ما يؤكده هذا المديح إلا أنه هو لم يذقه ؟ كلا إننا نحب
أن نرى الرجل الفكاهة « يتذوق » طعم الفكاهة التى يقدمها لأصحابه ،

وأن نرى الفكاهة نفسها أو الفكرة الجميلة الغريبة تتردد على شفثيه بضعة لحظات قبل أن ينطق بها لسانه ، فإذا كانت فكاهة ظريفة جديدة ، ممتعة حقاً ، قد خلقها الظرف الذى قيلت فيه ، وإذا كان قائلها لم يفكر فيها قط من قبل ، كان هو بطبيعة الحال أول من يتذوقها . وإذا ما طُلب إليه فى هذه الحال أن يكتب سروره بها كان ذلك تكليفاً شاقاً بل إهانة حققة . وهل لهذا معنى إلا أن أصحابك قد بلغوا من ضعف العقول وسخاقتها أنهم يتأثرون بصورة أو خيال لا تتأثر به أنت ، أو لا تتأثر به إلا قليلاً ؟ أليست هذه العقلية هى عقلية المضيف الذى يعرض على ضيوفه تحفة جميلة نادرة ثم يدعى أنه « لا يرى فيها شيئاً غير عادى » .

حجرة المريض

بقلم

وليم هازلت William Hazlitt

١٧٧٨ — ١٨٣٠

[كان والده قسيسا ، وكان يُعد نفسه ليكون رساما ، فسافر إلى باريس لهذا الغرض ، ولكنه لم يفلح في دراسة الفن ، فتحول عنه إلى الأدب ، واتصل بكبار أدباء العصر أمثال كولردج ، وورد سورت ولام ، ولى هنت . وكان كاتباً أدبياً ، وناقداً وخطيباً ، ألقى في لندن عدة محاضرات عن نشأة الفلسفة الحديثة ، وألف عدة كتب أشهرها كلها كتابه عن شخصيات روايات شيكسبير Characters of Shakespeare's Plays وقد أهداه إلى صديقه لام . أما مقالاته فقد نشرها في صحف لندن . وفي آخر أيام حياته بدأ يكتب سيرة بطله نابليون ، لكنه لم يتمها لاعتلال صحته . وكان آخر ما قاله وهو يحتضر « لقد حيت حياة سعيدة I've lived a happy life »] .

١٩

ليس ثمة إلا خطوة واحدة بين ساحة الملهى المزدحم وحجرة المريض الخالية ؛ بين الأصوات الصاخبة ، والأنوار الساطعة ، والمرح العظيم ؛ وبين الوحدة والظلمة والكآبة والألم الشديد . إن نسمة من الهواء ، أو سحابة

في السماء ، لكفيلة بإحداث الانتقال من هذه إلى تلك ؛ وهو انتقال يحدث في لحظة ، ولكن يبدو أنه سيبقى أبداً الأبدن . والمرض الفاجئ لا يقطع علينا أسباب ظفرنا وبهجة نخسب ، بل إنه يحو من غيلتنا كل ما فيها من ذكريات لهذا الظفر وهذه البهجة ، كما يحو منها كل رغبة فيهما . ففي المرض نفقد لذة النعيم وبهجة الخيال . فأجسامنا لا تتحرك من الفراش ، وأفكارنا تدور حول المرض وحده ، وقد سدت أمامنا طريق البهجة والحبور ؛ ولو أن أبواب الخيال بقيت مفتوحة ، واستطعنا أن نتنقل بأفكارنا من فراشنا المضطرب إلى الماضي أو المستقبل ، لنرى مناظر المرح والبهجة تسبح على بعد منا وإن حرمانا لذة الاستمتاع الحاضر بها ، لكان في هذا التفاوت بين الحالين شيء من الراحة رغم هذا الألم ، ولخفف عنا هذا النعيم الزائف ما نحن فيه من غم وكمد . لكن أشد ما يؤلم الإنسان في المرض أنه لا يستطيع أن يفكر في شيء غير الشقاء الذي هو فيه ، فهو محبوس فيه مقيد به ، قد أقفلت عليه أبواب عقله ، وأزلت عليه سُرُجَه ، وامتنع عليه كل تفكير إلا في المرض . لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت عليه نفسه ، فإذا حاول انتزاعها من التفكير في المرض لم يجد مخرجاً منه إلا إليه ، وكأن روحه قد أُلقيت مع جسمه المهشم في هذا الركن المهمل من تلك الحجرة المنعزلة .

وفي المرض يكره الإنسان نفسه ، ويكره كل شيء غيره ، ولا يجد شعاعاً من الراحة يخترق ظلام الألم الحالك ليبعث في نفسه شيئاً من أسباب النعيم إذا كان جسمه يتلوى من شدة العذاب . وماذا تفيد الأصوات العذبة ، أو الأنغام الموسيقية الشجية ، إذا لم يكن في وسع الإنسان حتى أن يتنفس ؟

إن المريض الذى يحاول الاستمتاع بها إنما يحاول المستحيل ، وهو لا يلبث أن ييأس من ذلك العبث الباطل ، وهو إيجاد الصلة بين البهجة والألم ، وخلق النشوة من البلادة . ذلك عمل يُمرض القلب نفسه ، فكل الذى يشعر به من هذه حاله هو مرضه الحاضر ورغبته الملحة فى التخلص منه ؛ هذا هو الذى يرغب فيه ويحرص عليه ولا يتحول عنه ، وكل ما عداه فى رأيه سخف وهذيان . ويظن المريض وهو فى مرضه أنه لو استطاع أن يشتري الراحة بأى ثمن لقنع بها عن كل ما عداها من أسباب السرور ؛ ويبدو له أن كل شئ سوى المرض والعلاج تافهٌ حقير ؛ بل إن المرض ليتجسم فى عينيه حتى يتصوره شيطانا مريدا ، وشبحا هائلا ، وكابوسا يحوم حوله ويحتم عليه ويكتم أنفاسه ، فيكافحه أول الأمر ، ولكنه يعضه بنابه ، ويقبض عليه بيده ، ويعذبه ويروعه بمنظره الرهيب ؛ وهو يحس به ممسكا بكل عضو من أعضاء جسمه ، وكل موهبة من مواهب عقله ، ثم يستحوذ آخر الأمر عليه كله ، فلا يستطيع أن يحول عقله عنه ساعة من الزمان ، حتى ليبدو له أن كل شئ سوى الألم قد فقد ما له من قيمة وأثر فى النفس . وهذا هو منشأ ما يتخذه المريض فى بعض الأحيان من قرارات طريفة لخير المجتمع ، وما لفراش المرض من فضل على العالم وعلى عرش الملوك . إنا ليسهل علينا أن نترك الخمر حين لا نحس فى أفواهنا إلا بطعم الدواء ، وألا يسيل لعابنا لشهى الطعام حين نحس بأن أمعاءنا تكاد تخرج من بطوننا . والحب والجمال يطيران من الفراش الذى كُتناه المريض الحامل القلق ألف تنية ، وكأن مرا كز السرور فى العقل قد قضت عليها الآلام التى تحترق الرأس وتعصر الأعضاء عصراً ؛ وتنتاب المريض الحمى

فيضطرب ويرتجف كما ترتجف أوراق الشجر في الريح العاصفة ، ويسوء هضمه فيحس كأن أثقالا من الرصاص قد حشرت في بطنه . ولو أن للأفكار التي تتردد في العقل أصواتا تُسمع لسمعت منها « ألا فليسقط الطمع ، وليسقط الشح والحرص على المال ! » . وما أشبه حياة المريض بحياة الناسك المعدم ، الذي لا يطعم إلا من نبات الأرض ولا يرتوى إلا من ماء الغدير الكدر .

لكن الأيمان المغلظة التي تقسمها في أثناء المرض تكون في الغالب قصيرة الأجل تنقضها على الفور إذا ما قدر لنا الشفاء ؛ وليس الباعث على توكيدها في أثناء المرض ، وعلى التحلل منها بعد الشفاء ، سوى حب الذات . وما أسرعنا إلى نقض التوبة التي نُعلنها على رؤوس الملائ بأعلى الأصوات ، ونُشهد الله عليها بأقوى الأيمان ؛ ذلك أن التوبة والعودة صادرتان عن سبب واحد هو هذه الأنانية القوية التي تتملكنا حين نتوب وحين نعود ، وذلك العجز التام عن النظر إلى ما وراء الساعة التي نحن فيها .

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب من ضعف الأثر الذي تحدثه في العقل آلام الجسم ، اللهم إلا حين يكون الإنسان خاضعا لسلطانها المباشر . فما دام تأثير هذه الآلام باقيا كانت هي كل شيء ، وإذا ما زال أصبحت لا شيء . والمريض يتقلب ويتلوى في الفراش ، وينام تارة على جنبه الأيمن وتارة على جنبه الأيسر ، ثم يتمدد على ظهره ، وينبطح على بطنه ، ويلف نفسه بملاءة فرش ليتقي البرد ، ثم يلقها على الأرض لينجو من الاختناق أو الحر ، ويشتد به الألم فيقبض على وسادته بكلتا يديه ، ويلقى بنفسه من فراشه ، ويذرعه غرفته ذهابا وجيئة بخطى سريعة أو كليلية ، ثم يعود مرة أخرى

إلى فراشه وقد أنهكه التعب والألم ، ولكنه لا يجد عاصما من هذا ولا راحة من ذلك . وهو تارة يستجمع كل ما أوتي من صبر ، وتراه يكاد يتميز من الغيظ ، ولكن هذا كله لا يجديه نفعا ، فكان المرض قطعة منه أو كأنه هو قطعة من المرض ، أو كأن الحياة والموت يصطرعان في جسمه ؛ ثم يبذل جهودا جديدة ، ويستنبط حيلة جديدة ، ولكن شيئا منها لا يخلصه من ألمه ، أو يبعث في نفسه النجاة من عدوه القاهر المسيطر . فساعة يُحس بهذا الألم كوخز الإبر ، وأخرى يتصوره أثقل من الجبل ، وهو في هذه وتلك أكثر مما يطيق . ويبدو له مع ذلك أن لا آخر لهذا العذاب الطويل ، وتخور قواه من الضعف تارة ، ويجن من الألم تارة أخرى ، ويزعج ملائكة السماء بدعائه وصلواته ، ويظن أن الموت يتربص به ، وأن أجله قد اقترب ، أو هو يتمنى أن يفارق الحياة لينجو مما هو فيه ؛ ويسائل نفسه عن أصل الشر وضرورة الألم ، وينكر فائدة الدواء ، ويرمى الأطباء جميعهم بالخداع أو الجنون . وكيف لا يكونون مخادعين أو مجانين وهو يطلب الراحة من ألمه ، وهم يباعدون بينه وبين مطلبه ؟ وما ذلك إلا لما طبعوا عليه من الشر ، أو لرغبتهم في التظاهر بأنهم أكثر من المريض علما وأحصف رأيا . وتراه يجادل الصيدلى ويسخر من الممرضة ، وهو عاجز عن أن يرى أن الحالة التي هو فيها لا يمكن أن تدوم ، بل إنه ليغضب ممن ينطقون أمامه بكلمة من تشجيع ، ويظن أنهم يخادعون أو يعاملونه معاملة الطفل الرضيع . وقد يبلغ به الأمر أن يفكر في الخلاص من مرضه بالسم أو الخنجر أو الجبل ، ولكنه لا يجد لديه قوة على تنفيذ ما يريد ، لأن أعصابه قد تحطمت فلم تعد تقوى على هذا الانتقام الحقير .

ثم تتبدل الحال ، وينفك الطلسم ، وينسى المريض كل ما كان فيه ، ولا يكاد المرض يدبر عنه حتى يسخر منه ، ويبدوله ما كان فيه كأنه حلم أو خرافة ، فتكون الصحة هي الحال المألوفة ، وتصبح القوة حَقَّه فعلا وقانونا ، ويغمض العين عن كل ما يذكره بمرضه ، ويسخر منه ويحتقره ، ويلقيه عنه كما يلقي زجاجات الدواء من النافذة . ويبدأ دور النقاهاة فيصحو المريض من غفوة قصيرة ، ويرى شعاعا من الضوء الذهبي يخترق الستائر البيضاء المعلقة على النافذة التي أمامه ؛ فهل هو مطلع فجر يوم آت أو مغرب شمس يوم مفارق ؟ إنه لا يعلم ذلك علم اليقين ، لأن المخدر الذي تناوله كان قوى الأثر في عقله ، فأنساه هل تقدم به الزمن أو وقف أو ارتد إلى الوراء . ثم يَسْتَرْع من تفكيره في نفسه ساعة من الزمان يفكر فيها في أمور خارجها ؛ فيظن أنه إذا استعاد في الخيال صورة منظر رآه ذات مساء كانت الشمس فيه تنحدر فوق الأفق ، والسحب البيضاء ، والسماء الصافية الزرقاء ، والمروج الخضراء ، والنسيم المنعش العليل ، إذا استعاد هذا المنظر رَوَّح عن نفسه وأزال عنه بعض خموله وتعبه . ولكنه يحاول عبثا ، فالخيال لا يطاوعه ولا يرفرف بأجنحته إلا فوق فراشه ، ويظل الهواء المحبوس في حجرة غير الهواء النقي الطليق في خارجها ، ثم تختفي الشمس ويظلم الجو ويخيم السكون .

ثم يؤذن للمريض بالخروج ، فينسى الوسادة المتقلبة ، والشراب المُحَلَّى ، وزجاجات الدواء ، والجب الذي كان ملق في غيابه . ذلك أن ما لا يتفق مع إحساسنا الحاضر ، أو عاداتنا المقررة ، لا يستقر طويلا في العقول ، ومجال الحواس والعادات مجال ضيق لا يتسع لأكثر من ضيف

واحد في وقت واحد . ومن أجل ذلك لا نرى ما يدعو إلى العجب في أننا لا نرتاع كثيراً من المصائب الكبرى قبل أن نحل بنا ، ولا نفكر فيها كثيراً بعد وقوعها . وما أصدق القول المأثور « إن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر » وقد يكون في هذا ما يفسر ضالة الأثر الذي يحدثه العقاب في النفس . ذلك أن العقاب حالة طارئة مغايرة للطبيعة ، فإذا لم يمس الشرف والضمير (وكيف يمسهما إذا لم يكن لهما وجود) كان عديم الأثر . وإذا كان ثمة شرف وضمير فإن العقاب يحرقهما ويحرقهما ، فالأصفاد والسجون ، والخبز الأسود الخشن ، والأشغال الشاقة ، مما يرتاع له عقل المجرم الذي فرضت عليه ، والذي أسرف في حريته وأطلق العنان لشهواته ؛ ولكنه يلقها كلها من وراء ظهره ضاحكاً منها مستهزئاً بها ساعة يستطيع أن يفر منها أو يحتمل عليها .

وذلك أيضاً شأن الأسفار . فكثيراً ما نلاقى فيها الأمرين من برد قارس ، أو حر لافح ، أو خطر داهم ، فنقسم ألا نعود إليها أبداً ، ولكننا لا نحجم عن القيام برحلة جديدة في اليوم التالي لعودتنا من رحلة قديمة ، عند ما ترسم في خيلتنا من جديد صورة الطبيعة الجميلة ، والمناظر المتغيرة ، والحوادث المتوقعة ، فننسى من فورنا الحر والبرد ، والصخب والضجيج ، وعناء السفر ، لأن الجسم ينسى متاعبه ولا يفكر فيها إلا حين تعاوده مرة أخرى . أما الخيال والعاطفة فهما أدوم وأبقى ؛ فاللذة والألم إذا انقضى سببهما لم يبق لهما في الجسم أثر ، وأما الخيال وأما العواطف فلا يبدأ وجودهما إلا ساعة يزول سببهما .

ومن العجيب أن الإنسان إذا خرج من حجرة المرض التي سجن فيها

فترة من الزمن ضعفت فيها قوته واضطربت أعصابه ، ثم شاهد الطبيعة لأول مرة ، فإن ما تقع عليه عينه من الأشياء يبدو له في صورة مربية أقرب إلى الأشباح منها إلى الأجسام . فالناس في الطرقات يبدوون له وكأنهم ذباب أو كأنهم كائنات بين الحياة والموت ، والحقيقة أنا نحن الذين قد خرجنا تَوّاً من خمولنا الوخيم ، وخلعنا على غيرنا شعورنا الضعيف بالحياة والصحة والحركة ، أو لعل ما أصابنا من ألم شديد ، وما قاسيناه من إجهاد عنيف ، قد جعل الأشياء العادية المألوفة تبدو كالأشباح والأطياف . وليس من حقنا أن نقول إننا قد عدنا إلى أنفسنا إلا حين نجلس كما كنا نفعل من قبل في حجرة الزايرين ، ونلتف حول المدفأ ، ونحس بالجوع والرغبة في الطعام ، ونمسك بيدنا كتاباً نطالع فيه . على أننا حتى في ذلك الوقت لانتق بحواسنا ، بل كثيراً ما نعمد إلى تجربتها للتأكد من سلامتها ، كما يمد الإنسان يده عند ما يصحو من النوم ليعرف هل هو في يقظة أو في منام . وتلك هي الأيام التي تحلو فيها القراءة ؛ فالإنسان عقب شفائه من مرضه ، ونجاة من موته ، يقبل على الكتب برغبة الشباب ونشاطه ، وليس كل السبب في هذا الإقبال أنه في تلك الأيام التي لا يقوى فيها على العمل المجهد يستعين بالقراءة على قضاء وقته وإزالة السآمة والملل من نفسه ، بل من أسبابه أيضاً أن القراءة في هذه الفترة من الحياة قد تعيد إليه شعوره الحماسي غير المتصنع الذي كان يحس به عند ما قرأ لأول مرة . ذلك أن المرض قد عطل وجدانه أو أماته إلى حين ، وحال بينه وبين مشاغل العالم ، وأنجاه من العناد والخصام ، وأعاد طفلاً ذلولاً كما كان في بدء الحياة . وكل تغيير يطرأ على حياته في هذه الفترة يرجع به إلى أيامه الماضية ؛ وليس ثمة شيء أقرب من الكتب

ولا أسرع منها في إزالة جميع ما بقي لديه من متاعب المرض ومنها المتاعب
الجسمية نفسها ، حتى إن كتاباً واحداً منها ليكفي أحياناً في إزالة كل
ما يعتره من سوء الهضم الذي يعقب المرض . والإنسان حين يعود إلى الحياة
محطم الأعصاب مضضع القوى يخيل إليه أنه يبدأ الحياة من جديد ، وليس
له فيها أغراض واضحة مؤكدة ، فهو كالآلة التي اختلت فأصبحت تتأرجح
في سيرها ولا تتبع الطريق السوى . وكأن اقترابنا من الموت في أثناء المرض
قد روعنا ورغبنا في الابتعاد عنه أكثر ما نستطيع ، وجعلنا نعيش في
ماضينا أكثر مما نعيش في حاضرننا ؛ ونحس بتراخي قبضتنا على الحياة
وتصرمها بين أيدينا ، فنستجمع كل ما بقي فيها من قوة ، ونستعيد كل
ما ادخرته لنا ذا كرتنا من الماضي . ومن أجل هذا نرى كل شيء معكوساً
على الماضي ومنسوباً إليه ؛ نسمع أصوات المرح في الطريق فتعود بنا إلى ذكرى
جماعة كنا معهم في بلدة أو قرية في الريف ، وقد تعود بنا إلى أيام الصبا ،
فترى الصغار يلعبون على شاطئ البحر ، ونسمع الأمواج الصاخبة تصطدم
بالصخور . بل إننا ليخيل إلينا أن الأصوات الهادئة المألوفة أصوات منقولة
إلينا من خلال عشرات السنين ؛ ونشم رائحة الورد فنجس أنها أذكي
ضعفين مما كانت حين اختلطت رائحتها بالأدهان والعطور ؛ وتسمرنا ذكرى
الأسفار الماضية أكثر من الأسفار نفسها ، لا لشيء إلا أننا كنا على
فراش المرض .

والكتاب هو الطلسم السحري الأكيد الذي يعيد هذه الذكريات
كلها إلى الخيال ، وأفضل الكتب عندي هو الكتاب القديم ؛ فإذا قرأته
بعد مرضى أحسست أعصابي تنتعش ، وروحي تتهيج ، حتى لا تراني آسف

على الظرف الذى أُلجأنى إليه ، وإلى مؤلفه . لقد أنساني حجرة مرضى حتى
كدت أنكر على الناس قولهم إن « إذنا بدخول المسرح من غير أجر هو
أعظم لذة فى الحياة »^(١) . وذلك لأننى وأنا أطلع الكتاب أحس أنه إذا كان
المسرح يطلعنا على الرجال المتفكرين ، وعلى صور من العالم جديدة ، فإن
الكتب تنفذ بنا إلى أرواح غيرنا من الناس وتفتح أمامنا ما استغلق علينا
من أرواحنا نحن ؛ فالكتب أول ملاذنا وآخرها ، وألصقها بنا وأقربها
إلى قلوبنا .

(١) يشير الكاتب إلى موضوع مقال له فى هذا المعنى كتبه فى نفس ذلك العام
فى إحدى المجلات . (المعرب) .

موت الأطفال

بقلم

جيمس هنرى لى هنت James Henry Leigh Hunt

١٧٨٤ - ١٨٥٩

[كان أبوه وجده من رجال الدين ، وكان رفيقاً فى Christ's Hospital
لكولردج ولام ، لكنه لم يواصل الدرس بل انقطع عن الكلية فى سن
الخامسة عشرة كما انقطع عنها لام . وكان كثير القراءة ، وقد أصدر عدة
مجلات دورية أدبية وسياسية ، وأدت آراؤه الحرة المتطرفة إلى الحكم
عليه بالسجن وبغرامة قدرها ٥٠٠ جنيه . ولم يكن يُضَيَّق عليه كثيراً
فى سجنه ، فكان يزوره فيه كبار الأدباء أمثال تشارلس لام وأخته ميرى
وتومس مور Thomas Moore وبيرون Byron وشلى Shelley وكيثس
Keats . وبعد أن خرج من السجن دعاه شلى وبيرون للسفر إلى إيطاليا
لإنشاء جريدة مناصرة لحزب الأحرار ، ولكنه لم يكد يصل إليها هو
وأمرته حتى مات شلى غرقاً ففشل المشروع . وبعد أن أقام لى هنت فى
إيطاليا بعض الوقت عاد إلى إنجلترا وصرف بقية حياته فى مغامرات صحفية
وكتابات أدبية . وفى عام ١٨٤٨ رتب له الحكومة معاشاً قدره ٥٠٠
جنيه سنوياً .

وكان لى هنت يطمح فى أن يكون شاعراً عظيماً ، لكن شعره لا يقرأ منه
الآن إلا قصيدة واحدة ، هى قصيدة Abu Ben Adhem . غير أنه نجح نجاحاً

عظيما في مقالاته الأدبية التي نشر معظمها في صحيفة The Indicator (الدليل) وعلى هذه المقالات تقوم شهرته [.

٢٠

سئل مرة فيلسوف يوناني : « لم تبكي على موت ولدك وأنت تعلم أن البكاء في هذه الحال لا يفيد ؟ » فأجاب : « ومن أجل هذا أبكي » . وكان هذا الجواب أعظم شاهد على رجاحة عقله . وما من شك في أن القول بأن أعيننا ، وهي ينبوع الدموع ومستودعها ، يجب أن يحتبس فيها الدمع أبداً ، هو السفسطة بعينها . ومن الحق ألا يفيض الدمع من العينين أحياناً ؛ فالحزن يطلقه ليخفف من حدة . نعم إن العبرات الأولى قد تكون مرة وغزيرة ، ولكن التربة التي تسقيها هذه العبرات تسوء حالها إذا لم تُرو منها ، فهي تطفئ حمى النفس المتأججة ، وتخفف حدة البؤس الجاف الذي يلفح الوجوه ويجعدها ، ويعرضها للذبول .

نعم إن بعض الحزن عارم عنيف ، إذا تفجرت منه الدموع طغت على الإنسان وغلبته على أمره . ذلك حزن من واجبنا أن نصبر عليه ونقاومه ، أو أن نحني رؤوسنا له من غير أن نستسلم للبكاء حتى يمر ولا يصرعنا كما تمر الريح على المسافرين في الصحراء ، ولكننا حين نشعر بأن الدموع تخفف من لوعتنا ، فإن من الخطأ أن نحرم أنفسنا من هذه الوسيلة التي نستطيع بها أن نبرد غلتنا ، ونخفف من حدة الحزن بالخضوع له بعض الشيء . ومن الأحزان ما هو رقيق بطبيعته بحيث يكون من البطولة الكاذبة ، أو ما هو شر من البطولة الكاذبة ، أن يأبى الإنسان عليه دمة من عينه ؛

ومن هذا النوع موت الأطفال . وقد يكون لدى الآباء من الظروف الخاصة ما يجعل الاسترسال في الحزن لموت أطفالهم مستحبا إلى حد قليل أو كثير ؛ ولكن يجب ألا يشير أحد على الآباء من أجل هذا بأن يحبسوا دموعهم في هذا الظرف ، كما يجب ألا يشير عليهم أحد بأن يضمنوا بسماتهم على الأطفال الأحياء ، أو أن يُقَصِّروا في إظهار حبههم لهم وعطفهم عليهم بغير هذه الوسيلة . فصدر البسات والدموع عاطفة واحدة ، وهي عاطفة لا يلجأ الإنسان إليها عبثا ؛ وهي في الحزن تخفف عنا عبئه القاسي الثقيل ، وتفك بعض الأغلال التي تقيد الروح ، والتي تركز تفكير الإنسان حول فكرة واحدة يكتئب لها ويضيق بها صدره .

ومن شأن الدموع التي من هذا النوع أن تجف شيئا فشيئا مهما كان تيارها في أول الأمر قويا جارفا ؛ فليس من طبيعة الإنسان أن يظل طول حياته يألم كلما فكر في فقيد عزيز ؛ ذلك أن ما ينطوى عليه القلب من حب لهؤلاء الأعزاء لا يلبث أن يتغلب على هذا الألم ، وإن كان مصدره الموت نفسه ، وأن يحيل ذكراهم إلى نوع من السرور ، وأن يرسم لهم في الخيال صورة رقيقة لطيفة .

وأما الآن وأنا أكتب هذه السطور بقعة من الأرض تضم رفات أغر الناس على^(١) ؛ وإني لأرى من نوافذ حجرتي الأشجار المحيطة بها ومنازة الكنيسة المجاورة لها ، ومن حولها المروج الخضراء تمتد على مصب البصر ، ومن فوقها السحب يدفع بعضها بعضا ، تحجب ضوء الشمس تارة وتسمح له بالنفاذ من خلالها تارة أخرى ؛ وتهب على المكان نسائم الربيع معطرة بشذى الأزهار ، فتذكرني بالبحر البعيد الصاحب الذي يحتفظ له

(١) يقصد قبر والدته في همبستد Hampstead

القلب الثاوى فى هذا المكان بذكريات حجة . ومع هذا كله فإن رؤية هذه البقعة لا تبعث فى نفسى شيئاً من الألم ، بل إن وجود القبر فيها ليضعف مالها من سحر وجمال ، ويربط فى نفسى مراح الطفولة بمباهج الرجولة ، ويضفى على الرياح رقة وهدوءاً ، وعلى المنظر كله بهجة وسروراً ، وكأنه يصل الأرض بالسماء ، والفناء بالخلود ، ويكسب الطبيعة الرحيمة كلها رقة الأمومة . ولقد كانت السعادة هى التى تشيعها فى النفس ساكنة هذا القبر مهما أحاط بها من المتاعب ، وفى إشاعة هذه السعادة الآن والتمتع بها تنفيذ لرغباتها ، وتحقيق لآمالها . وإنا لنبذل كرنا بمن مات من الكبار ما كان بيننا وبينهم من صلوات ؛ فلربما كانوا أصدقاء أوفياء أظهروا لنا فى ساعة المحنة ما خفف عنا بعض البلاء ؛ أما الصغار فراحهم الطاهر البرى يغنيهم عن فضائل الكبار ؛ وخير ما يتمثل فيه المرح المبرأ من دنس الأحقاد هو الطفل يرح فى حجراته ، فبراءة الطفل ومعزته تبقى فى الذكرة بعد موته كما تبقى فيها فضائل الكبار . فالأطفال ، وإن لم يقوموا عن قصد بواجبات الصداقة ، أو لم يختاروا أن يكونوا أصدقاء أوفياء ، أو يعملوا لتخفيف بلوانا فى ساعة المحنة ، قد أشركونا بقدر ما فى وسعهم فى مسراتهم وآلامهم . الصلوات التى بيننا وبينهم لم تختلط بها متاعب العالم كما تختلط بالصلوات الكبار ؛ ومن أجل ذلك كان الحزن الناشئ من فقدانهم هو الألم الوحيد الذى يرتبط بذكرياتهم ؛ وأما مآعده من الذكريات فكلها ذكريات سعيدة لا تزول أبداً ؛ وقد يبعث فقدانهم على التفكير ولكنه لا يظل على الدوام مصحوباً بالألم ؛ ومن رحمة الله بنا أن الألم مهما يكن سببه لا يدوم كما يدوم السرور . وإذا كان منشؤه موت طفل برىء كان أقصر أجلاً ؛ فالذى يدوم

بعد موت الطفل هو ابتسامته التى تبقى منعكسة فى الذاكرة ، كما يبقى ضوء الشمس منعكسا على القمر بعد احتجابها فى السماء .

ويلوح أن موت الأطفال من تلك الآلام المرة التى كتب على الإنسانية أن تتجرعها من حين إلى حين . ولقد يكون فى وسعنا أن نستعين بكل الوسائل لتقليل عدد من يموتون منهم ، ولكن إذا انعدم الموت من بينهم انعداما تاما فإن مولد الطفل لا يكون له فى تفكيرنا إلا معنى واحد ، وهو أننا ضمنا إلى العالم رجلا أو امرأة فى المستقبل . وليس يصعب علينا أن نتصور فى هذه الحال ما يخسره العالم ، بسبب هذا الضمان ، من عواطف وآمال محبة غالية . فعنى الطفولة نفسه لا يبقى له فى أذهاننا وجود ، ويصبح البنات والأولاد فى هذه الحال نساء ورجالا آتين لا أطفالا حاضرين ، قد كمل نموهم فى مخيلتنا ، فكأنهم صاروا نساء ورجالا من فورهم ساعة يولدون . أما من فقد من الآباء طفلا فكأنه لم يعدم وجود طفل له ، مهما بدا فى هذا التعبير من تناقض ؛ وأولئك الآباء وحدهم هم الذين يشعرون بمعنى الطفولة على الدوام ، وهم الذين يُشعرون به جبرتهم وأصدقائهم . يكبر الأطفال الآخرون ويصبحون رجالا ونساء ، وينتابهم فى حياتهم ما ينتاب سائر الأحياء الفانين من بنى الإنسان . أما الطفل الذى مات فهو وحده الذى يصبح طفلا مخلداً ، لقد استولى عليه الموت بقبضته القوية الرحيمة ، وأنعم عليه بصبر الطفولة والطهارة الأبدية الخالدة .

وأجل الصور التى تمر بخيالنا هى الصور التى من هذا النوع ، فهى رموز للبهجة والسرور دائمة الابتسام .

وأرواح الأطفال الطاهرة الرقيقة هى التى تسكن مملكة السماء ، وهى هناك لا تعرف شيئا عن الخير والشر ، وتتمتع بكل ما وهبت فى الجنة من نعيم .

غارة الجراثيم

كتبها في سنة ١٩٣٣

هربرت جورج ولز Herbert George Wells

١٨٦٦ — ١٩٣٣

[الأديب والمؤرخ والفيلسوف والعالم الطبيعي والاجتماعي الذائع الصيت . درس العلوم الطبيعية وحصل فيها على درجة B. S. C. بمرتبة الشرف من الدرجة الأولى في علم الحيوان ، واشتغل عدة سنين بتدريس العلوم ، ثم ترك التدريس واشتغل بالكتابة إلى الصحف . وفي عام ١٨٩٥ نشر أولى رواياته « آلة الزمن » ، وترى فيها أثر دراسته العلمية واضحاً جلياً . وتتابعت أعماله من ذلك الحين فنشر عدداً من الروايات والأحاديث والمحاضرات . وتمتاز رواياته كلها بالطابع العلمي ، والثورة على النظم القائمة ، والدعوة إلى التجديد والإصلاح الشامل في كل شيء ، في النظم الاجتماعية والسياسية والتعليمية . وله في التاريخ كتابان معروفان هما :

A Short History of the World ، The Outline of History

وهو اشتراك النزعة ، غير راض عن التطور الديمقراطي البطيء . وقد تنبأ بوقوع الحرب الحاضرة وبسببها المباشر وبدايتها بالتقريب . ومن أهم الكتب التي أخرجها في أثناء الحرب الحاضرة Commonsense of War & Peace والمقالان اللذان اخترناهما في هذه المجموعة مأخوذان من كتابه The Shape of Things to Come الذي نشره في عام ١٩٣٣ وهو

مجموعة مقالات مملوءة بالسخرية من النظم الحاضرة والدعوة إلى إقامة نظم جديدة .

ويعتقد كثير من الأدباء أن روايته المسماة The Story of a Simple Life والتي نشرها في عام ١٩٠٥ هي خير ما كتب من الروايات حتى الآن ، وهو يشتغل الآن بعمل الأشرطة السينمائية ، وقد أخرج منها ثلاثة مشهورة هي ، The Man Who Could Work Miracles ، The New Faust ، The Food of the Gods.]

وفي عام ١٩٣٦ نشر كتابه المسمى صورة الأشياء في المستقبل The Shape of Things to come تخيل فيه أنه يعيش في بداية القرن الثاني والعشرين ، وأنه يكتب تاريخ العالم في الفترة الواقعة بين الحرب الكبرى الماضية وبين عام ٢١٠٥ . وقد وصف في هذا الكتاب حرباً طاحنة تنبأ بوقوعها . شبت نارها في عام ١٩٤٠ ، ودامت إلى ربيع سنة ١٩٤٩ . وكان سببها المباشر الممر البولندي المعروف ، ثم وضعت الحرب أوزارها في تلك السنة الأخيرة بناء على اقتراح تقدم به الدكتور بنيش Bens « بوقف القتال » مؤقتاً ، على أن تبقى كل دولة مالكة للأقاليم التي تحتلها جيوشها ، حتى يجتمع مؤتمر الصلح العام لوضع التسوية النهائية . لكن الأوبئة كالحمى الوافدة ، والكرا ، والحمى المبقعة ، مضافة إلى اضطراب الشؤون الاقتصادية ، وما نشأ بين الشعوب من روابط وعلاقات بعد وقف القتال ، كل ذلك حال دون انعقاد المؤتمر المرجو فلم تتم هذه التسوية . على أن القتال ظل موقوفاً إلى الوقت الذي تصور فيه ولز أنه يكتب عنه (١٩٥٩) .

إن نقص المعلومات المفصلة ، التي جعلت وصفنا للحرب الماضية^(١) وصفاً جافاً مملاً ، يصادفنا أيضاً عند ما نريد الكلام على الأوبئة التي فشت في العالم عقب وقف القتال ، وقضت على كل تفكير في مواصلة الحرب . ولم يعن الناس يتدوين الذكريات اليومية ، والرسائل الخاصة ، ووصف ما يقع تحت أنظارهم من الحوادث ، لأنهم شغلوا عن هذا العمل بغيره من الشؤون التي ملكت عليهم كل تفكيرهم فلم تدع لهم فضلة من النشاط يصرفونها فيه . وكأن الجرائم قد حذت حذو وزارات الخارجية في الدول فانهزت تلك الفرصة السانحة ، فرصة اضطراب شؤون بني الإنسان ، لتستعيد ما كان لها من سلطان في سابق الأيام .

وبدأت الغارة على أحدث طراز ، فلم يسبقها بلاغ نهائي أو إنذار ، وكانت الطليعة مؤلفة من كتائب متنوعة من جيوش الحمى الوافدة (الأنفلونزا) وأنواع أخرى من الحميات المنهكة للقوى ، السريعة الانتشار التي لم يكن التغلب عليها مستطاعاً في ظروف تلك الأيام ، فقد جاءت عقب حرب طاحنة لم تحب نارها إلا من زمن قليل . ذلك أن ما سببته الحرب من ضعف عام في صحة الأهلين ، ناشئ من قلة الغذاء ورداءة نوعه واضطراب الخدمات الصحية وتدهورها ، قد أدخل الميدان لهذه الأوبئة الفتاكة تصول فيه وتجول ، فقضت على حياة ملايين من بني الإنسان ، وأنهكت قوى من بقي منهم على قيد الحياة . وكان هذا الضعف العام أشد

(١) الحرب التي تصور وقوعها في عام ١٩٤٠ ودامت حتى عام ١٩٤٩

خطراً من الموت نفسه . ثم تلت الصفوف الأمامية جراثيم الكلرا والطاعون الدملي . وبعد خمس سنين من ذلك الوقت أو أكثر أى بعد أن ظن الناس أن العاصفة قد هدأت ، انتشر في العالم مرض خبيث هو مرض الحمى المبقعة انتشاراً مروعاً .

وكان المعروف من قبل عن هذا المرض المجهول أنه لا يصيب إلا أنواعاً من القردة الأسيرة ، ولكن يلوح أنه طرأ على جراثيمه تكيف فجائى ، أصبحت معه تلائم جسم الإنسان ذا الصلة القوية بأجسام القردة . ولعله قد وُجد وسيطٌ بين الاثنين أعد جراثيم هذه الحمى للجهوم على بنى الإنسان ، أو لعل الأوبئة التي انتشرت من قبل قد قضت على بعض العناصر التي كانت تقاوم هذه الجراثيم في دم البشر . تلك أمور لا تزال كلها خافية علينا لأنه لم يكن في ذلك الوقت أطباء أو علماء إخصائيون لديهم من الوقت مايسمح لهم بتدوين مشاهداتهم ، إذا ما اتسع وقتهم لهذه المشاهدات ؛ وكانت النشرات العلمية قد توقفت عن الظهور في كل مكان .

وظهر الوباء أول الأمر بجوار حدائق الحيوانات في لندن ، ثم انتشر منها بسرعة لا يتصورها العقل ، فشوه وجوه الناس وجلودهم ؛ وأصيبت الأجسام بحمى شديدة صحبها التهاب في الجلد واضطراب في الأعصاب عنيف يبعث في المريض رغبة في التجوال قوية لا يستطيع التغلب عليها ، ثم ينتهي المرض بأن تهد قوة المريض الجسمية فلا يستطيع حراكا ، ويظل على هذه الحال حتى يفارق الحياة . ولم يكن الماء وحده هو الذى ينقل عدوى هذه الحمى ، بل كانت تنقلها أيضاً قطع الجلد التي يقطعها المريض بيده من جسمه وهو لا يكاد يحس بما يفعل . وانتشر الوباء في مشارق الأرض ومغاربها ،

بفعل الماء والهواء والمرضى أنفسهم أثناء تجوالهم الجنونى فى بداية المرض ، حتى أصيب به نصف سكان العالم . ويستدل مما وصل إلى علمنا فى هذه الأيام على أن كل من تعرض للإصابة به قد أصيب به فعلا ، وأن كل من أصيب به قد قضى نحبه .

وبلغ هذا الوباء العالمى غايته فى الأشهر الثمانية عشر الرهيبة ، بين شهرى مايو ونوفبر سنة ١٩٥٦ . وكان هذا الشهر الأخير بداية شتاء قاس زمهرير ، ولكنه أُنقذ البقية الباقية من بنى الإنسان . ولم يعرف للمرض حتى الآن دواء ناجح يستأصل شأفته ، بل لم يعرف له دواء يخفف من حدته ؛ ومن أجل هذا انتشر بسرعة البرق فى جميع أنحاء الكرة الأرضية ، ثم اختفى بنفس السرعة وبالطريقة المجهولة اللتين ظهر بهما ، ولا يزال أمره سرا خفيا لم يهتد إليه علماء الأمراض . وأغرب ما عرف من أمره أنه لا يصيب البقية الباقية من القرود التى لم يقض عليها . ومن أجل هذا لا يستطيع العلماء الباحثون أن يزرعوا جراثيمه ، أو أن يجروا عليها التجارب . لقد جاء المرض ، وفتك ، وانقضى ، وكأنما قضى آخر الأمر على نفسه بنفسه بما خلفه فى الأجسام من عناصر مقاومة غير معروفة . وقد يكون المرض — كما يظن بعض العلماء — هو الحمى البقعة نفسها ، بل ورد الاستعداد للإصابة بها ، وانتشار هذا الاستعداد نفسه على غير علم من الناس فى العقد الخامس من القرن العشرين ، أى أن الذى فتك بالناس وقضى على حياتهم لم يكن المرض بل الضعف العام الذى حل بالأجسام عقب هذه الحرب .

والتاريخ في هذا كذاكرة الناس ، سرعان ما تمحى منه التجارب المؤلمة ، ولهذا كان من أسخف الأقوال التي يرددها بعض الناس قولهم إن الأمة التي لا تاريخ لها أمة سعيدة ، إذ الحقيقة عكس هذا تماما ، فالمرحلة التي تكون فيها الأمة ساكنة رخيية هي التي تخلف وراءها فيها مادة تكفي لكتابة تاريخها . وشاهد ذلك أننا نعرف في تاريخ مصر الشيء الكثير عن الحياة الاجتماعية الراقية خلال عهود العظمة والرخاء ، وأننا نعرف الكثير أيضاً عن عظمة آشور وفتوحها . أما أيام الهزائم الحربية فإنها لا تخلف وراءها إلا أكواما من الرماد . وتحدث أيام الأوبئة التي تحتاج البلاد ثغرات في سجلاتها . لسنا ننكر أن لدينا قصة ممتعة عن الطاعون الذي فشا في مدينة لندن عام ١٦٦٥ ، كتبها ديفو Defoe (١٦٥٩ — ١٧٣١) ؛ ولكن من واجبنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه القصة قد اصطنعها وكتبها وجمعها كاتب ألمي بعد أن مرت على حوادثها عدة سنين ، وأن هذا الكاتب نفسه لم يكن ممن شهدوا حوادثها . ولا ننكر أيضاً أن لدينا صورة شائقة لطاعون روما رسمها رفايل ، ولكن معظم الأوبئة التي حدثت في العالم غادرت هي وضحاياها ، ولم يبق لها ذكر في التاريخ . وكل ما عني به المؤرخون هو ما أعقبها من تقلقل واضطراب اجتماعي واقتصادي . هذا هو الذي يطنبون فيه ويفصلون فيه القول تفصيلا ، الذي مات فقد مات إلى غير رجعة . ولقد خلفت لنا فترة الرخاء التي عمت العالم في أثناء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طائفة كبيرة من المعلومات المدونة عن خلق تلك الأيام الذين لم يعرفوا ما حل بالإنسانية من بلاء إلا من أحاديث الناس ورواياتهم الشفهية ، والمذكرات

والصور الشمسية واليدوية وما إليها من الوسائل . أما سنتا ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ،
اللتان لم يمض عليهما إلا قرن وثلث قرن أو أكثر قليلا ، واللتان تعدان
من غير شك أقصى ما مر على الجنس البشرى من عهود ، فلا نكاد نجد
عنهما رسالة أو صورة أو كتاباً أو صحيفة سيارة ، تلقى عليهما شيئاً من
الضوء . وقد أُلّف كل ما كتب في هاتين السنتين خشية أن ينشر العدوى
بين الناس فيما بعد ، ولذلك كان من أصعب الأشياء على الكتاب الذين
جاءوا بعدئذ أن يصوروا ذلك العهد تصويراً صحيحاً .

ويخيل إلينا أن ما وصفه به كيبل Cable وناش داث Nash Dath
وبودسكو Bodesco ، ومرتينى Martini لا يختلف كثيراً عن الحقيقة ،
ولهذا فإننا نشير على القارئ بالرجوع إلى هذه القصص التي تصور حال القرى
والبلدان الصغيرة والكبيرة في تلك الأيام . لقد تكدست فيها جمث الموتي
من رجال ونساء ، ولم تجد من يوارىها التراب ، فأخذت تنهشها جماعات من
الكلاب الكلبة ، والقطط المتوحشة ، وخرجت الآساد في الهند والنمورة
في إفريقية تجوب الطرقات المقفرة ، وانطلقت الخنازير البرية في البرازيل
تلتهم الأموات من أهل البلاد ، فتضاعف عددها مرات ، وانتشرت الجرذان
واستوجشت فكانت لا تخشى مهاجمة الأحياء .

وكان من أشد ما روع الأحياء تجوال المرضى بينهم ، وكان وصف منظرهم
عظم ما استرعى انتباه الكتاب . ومما جاء في هذا الوصف أن أحداً لم
يستطع أن يقنع أولئك المرضى بالبقاء في دورهم أو في المستشفيات ، وأنهم
لم يمنعهم شيء من دخول المدن والدور التي ظلت إلى ما قبل دخولهم فيها
بمنجاة من الوباء . وارتاع الناس من هؤلاء المرضى الجوايين ، فكانوا

يطلقون الرصاص عليهم إذا اقتربوا منهم فقتلوا منهم عدة آلاف . وذلك عمل يروعنا نحن الآن كما يروعنا ما فعله ركاب قوارب النجاة الذين نزلوا من الباخرة العظيمة تيتنك Titanic عندما كانت تغوص في اليم بعد اصطدامها في عام ١٩١٢ بجبل من الجليد . فقد أخذ هؤلاء الركاب يضربون على أيدي الفرق من الرجال والنساء الذين تعلقوا بقوارب النجاة وعرضوها لخطر الفرق . ذلك أن الناس في مثل هذه الأحوال المؤسفة لا يستطيعون دوافع الإنسانية . وكذلك كانت حال الذين قاوموا عدوى الحمى المبقعة وهي التي تقضى على المريض أو تكسبه مناعة دائمة ، فقد استسلموا النوع من اليأس والكراهية لمن كان حولهم من المرضى القذرين ، ولم يحاول أحد أن يحتفظ بهدوئه ، ويستمسك بالنظام ، ويقوم بما يجب عليه في مثل تلك الأحوال ، إلا طائفة قليلة من الأطباء ورجال الدين والشرطة . واندفعت طائفة كبيرة من الناس يسلبون وينهبون . ويخيل إلينا مما وصل إلينا من الأخبار أن النساء كن بوجه عام أحسن سلوكا من الرجال ، وإن كان بعض من انضم منهن إلى الرجال قد ضربن لهم في النهب أسوأ الأمثال .

وهبت العاصفة ثم سكمت ، ففي شهر يناير من عام ١٩٥٧ كان الناس يجوبون المدن المقفرة ، ويدخلون البيوت الخالية ، ويعودون إلى أوطانهم المهجورة ، يطوفون بالطرقات التي تكدست فيها عظام الموتي المفككة المختلطة أو التماسكه ، وهم لا يكادون يصدقون أن غضب الطبيعة قد زال وأنهم لا تزال أمامهم بقية من الحياة .

وكان ماحل بالإنسانية من بلاء من جراء حرب الغازات لا يكاد يذكر إذا قيس إلى ما أصابها من غارة الجراثيم ، فلقد قضت هذه الغارة على نصف سكان العالم بأكمله .

سمو المقصد

بقلم

هـ. ج. ولز

من وصفه للعالم في سنة ٢١٠٥

٢٢

إن الرجل العادى فى هذه الأيام أ كبر سنا وأوفر عقلا من سلفه الذى كان يعيش على الأرض من ثلاثة قرون ، وهو إلى هذا كله يعمل فى غير ما كان يعمل فيه آبائوه الأولون ، فلم يبق أهم ما يسعى إليه الآن أن يحصل على ضرورات الحياة من طعام وشراب ولباس .

لقد كان أ كثر من تسعين فى المائة من سكان العالم من ثلاثة قرون مضت منصرفين إما إلى إنتاج ضرورات الحياة أو الاقتتال عليها لانتزاعها من منتجيتها الأولين ، وكان هؤلاء المنتجون الأولون كالزراع والعمال هم وأصحاب المشروعات الكبيرة ومديروها ، والمهيمنون عليها ، والموزعون المباشرون للإنتاج ، كان هؤلاء يبلغون أ كثر من ثمانين فى المائة من سكان العالم . وكان الباقون هم ملايين الوسطاء والمرابين ، والملاك ، وكبار المستأجرين ، والمحامين ، والمضاربين ، والطفيليين ، واللصوص وقطاع الطرق ومن إليهم ممن كان وجودهم يعد لازما لتسيير الأداة الاقتصادية فى تلك الأيام . وكان رجال القانون والتعليم وحفظه الأمن — غير الجند على اختلاف مراتبهم وأنواعهم — يؤلفون خمسة أو ستة فى المائة من الباقين . وكانت هناك أقلية ضئيلة لا تبلغ خمسة فى المائة من مجموع سكان العالم ، تصرف

جهودها في الفن ، والبحث العلمى ، والتفكير السياسى والاجتماعى ؛ وكانت هذه الطائفة القليلة هى الروح الحى في جسم الهيئة الاجتماعية بأجمعها .

ومعنى هذا أن الكتلة الغالبة من الناس كانت عنايتها كلها منصرفة إلى العمل على إنتاج ضرورات الحياة والاقتتال عليها ، وكان أهم ما يشغل بال أفرادها أن يفكروا على الدوام فيما يعود عليهم هم أنفسهم بالكسب ، أو فيما يعود على من يستخدمونهم بالنفع أو اللذة الحقيقية أو الموهومة ؛ وكان عليهم فوق ذلك أن يفكروا في الاحتفاظ بعملهم ، أو الحصول على عمل جديد ؛ وكان لهذا التفكير في أيام التعطل الذى لازم عهود الكساد أسوأ الأثر في عقول الناس . وإلى هذا كله كان عليهم أن يفكروا طويلا في إنفاق ما يكسبون ، فكانوا ينفقونه على حذر أو يدخرونه لأوقات الضيق ؛ ذلك بأن رجال الأعمال الجشعين كانوا في كل مكان يعملون جاهدين ليأخذوا ولا يعطوا . وكانوا إذا ضاقوا ذرعا بحياتهم الضيقة دفعهم اليأس في بعض الأحيان إلى المقامرة ، لعلهم يحصلون بها على كسب عاجل وإن يكن غير شريف ؛ ولكن المقامرة كانت تنتهى عادة بالخيبة والندم . فإذا أضفت إلى هذه المتاعب قليلا من الحب ، وكثيرا من الكره ، وكفاحا شديداً بين الفرد منهم ونفسه ليخدعها ويصور لها هذه الحياة في صورة شريفة تبعث على الأمل ، ورغبة ملحة في التفاخر والملق ، إذا أضفت ذلك كله إلى هذه المتاعب كان منها ما يشغل عقول تسعة وتسعين في المائة من بنى الإنسان الذين يتألف منهم سكان العالم في عام ١٩٣٠ ، وكانت هذه الكتلة عاجزة عن الخروج من هذه الدائرة الضيقة دائرة المصالح العاجلة المتضاربة المتنافرة التى لا تسمو فوق حاجات الحيوان الأعجم .

فلما قامت الدولة الحديثة^(١) حطمت هذه الدائرة التي كان ينحصر فيها اهتمام بنى الإنسان على بكرة أبيهم . نعم إننا لانزال كما كنا خلأق ذوى عقول لآتختلف فى تكوينها عن عقول آبائنا الأولين ، ولكننا لانستخدمها فى الأغراض التى كانوا يستخدمونها فيها . فقد ضمنت الدولة الحديثة الوفرة والرخاء لجميع سكان العالم ، وسيطرت على نسلهم ، فحملت عنهم عبء السعى فى طلب القوت ، وأراحتهم منه ومن النزاع عليه ، وامتنع التنافس القتال بين أصحاب المهنة الواحدة ، ولم يعد هذا كله يشغل بالهم ويستغرق معظم تفكيرهم ؛ وأصبحت طائفة من العمال الإخصائيين قليلة العدد نسبيا تسير الأداة التى تؤدى هذه الأعمال الأولية . أما سائر الناس فلم يعودوا يهتمون بأمر طعامهم وشرابهم وملبسهم ، وصحتهم وحرثهم ، وأضحى العمل الذى نلزم بأدائه غير مرهق فى مقداره ونوعه ، كما أضحى هو العمل الذى يرى المشرفون على شئون التربية أنه أكثر الأعمال ملاءمة لمن يقومون به . فإذا ما أديناه لم يكن لدينا شك فى الحصول على ثمرته ، ذلك أنه لم يعد فى العالم من يغشنا أو يسلبنا أجرنا . نعم إن المنافسة لاتزال قائمة بيننا ، وقد تكون الآن أعظم مما كانت من قبل ، ولا تزال نفوسنا تتنازعها عوامل الغيرة والشهامة ، ولكن شعور كل منا بأن عليه أن يعنى كل العناية بعمله صبح الشعور المسيطر عليه . ولم يعد الإنسان يدفع إلى العمل دفعا ، وأصبح الغرض من التنافس القائم بيننا هو التفوق والرغبة فى كسب تقدير الناس وإرضاء الضمير ؛ ولم يعد للمنافسة فى الإيذاء وجود ، وقد تحرر بذلك الجزء

(١) الدولة الحديثة التى يتصورها ونز ويدعو لها هى التى تشمل العالم بأجمعه .

الأكبر من الجهود العقلية البشرية التي كان الرجل العادى يوجهها فى أمور لا بد له من توجيهها إليها .

وليس شىء أدل على انصراف العقول عن هذه الدوافع الأولية من الإحصاءات التي تصدر عما كان يسميه الناس من قبل « الجريمة والعقاب » أى الأرقام الدالة على ما يرتكبه الناس من مخالفات وخروج على القانون ، واعتداء متعمد على النظام الاجتماعى ، وما يتبع ذلك من عقوبات وأعمال تأديبية ؛ وهذه الإحصاءات تصدر الآن عن « مراقبة السلوك » . وليس لدينا الآن شىء منها عن سنى الاضمحلال السالفة الذكر ؛ ولكن فى حوزتنا معلومات همة عن سنى النظام والرخاء النسبى الذى حل بين عامى ١٨٩٠ ، ١٩٣٠ . لقد كانت إنجلترا فى هذه الفترة خير بلاد العالم من هذه الناحية ، وأكثرها إطاعة للقانون . ولكن المؤرخ الذى يطلع على هذه الإحصاءات لا يتردد فى الحكم بأن هذه البلاد نفسها كانت مرتعاً للمجرمين . فالتلصص ، والغش بكافة أنواعه ، والتزوير والسطو والسرقة بالإكراه ، والتسميم وغيره من وسائل القتل ، كانت تحدث فى كل يوم ؛ وكان يبدو أن الاعتداء الشنيع على الملك لم ينقطع دابره بحال ، وكانت حوادث الانتحار الناشئة من المتاعب المالية من الحوادث المألوفة . أما الآن فقد انمحت أو كادت تنمحى ، هذه الجرائم التي كانت تغص بمرتكبيها السجون ، والتي كانت تقترف كلها من أجل الاقتتال على الملك والمال فى عصر الضيق ونقص الثمرات . ويدل تقرير « مراقبة السلوك » عن سنة ٢١٠٤ (لأن تقريرها عن سنة ٢١٠٥ لم يظهر بعد) على أن حوادث السرقات فى العالم

كله لا تزيد عن ٧١٥ حادثة ، وكان المسروق في كل حادثة منها تقريباً عملاً من أعمال الفن ، أو قطعة صغيرة من الحلى أو القماش المطرز ، أو حيواناً مدللاً . وكانت هناك حادثة واحدة بُلِّغ فيها عن سرقة زهرة من نوع جديد أثارت في السارق غريزة امتلاكها ، والرغبة في العناية بها . ولا يكاد الإنسان يظن أن ثمة سرقات أخرى كثيرة لم يبلغ عنها أو لم يعرف مرتكبها . والذي يستخلص من هذا أن طبيعة الإنسان بعد أن كانت آثمة على الدوام أصبحت لا تميل إلى الإثم إلا في قليل من الأوقات . ومن واجب علماء النفس الاجتماعيين في هذه الأيام أن يعملوا ما استطاعوا للقضاء على ما يثير في النفوس هذه البقية الباقية من الميول الإجرامية .

وكانت نتيجة هذه الوفرة في النشاط العقلي ، المترتبة على الوفرة المادية ، أن وجه هذا النشاط وجهة جديدة ، فقد استحال العدد الضئيل من العمال المبكرين الذين كانوا في العهد القديم لا يزيدون على نصف في المائة من سكان العالم بل ينقصون عنه ، ومن المفكرين المولعين بكل جديد ، ومن ذوى اليسار والفراغ الذين يصرفون أوقاتهم في جمع التحف العزيزة النادرة ، استحال هذا العدد الضئيل إلى طائفة كبيرة قوية من الباحثين والمجربين والمحققين والمسجلين ، تشمل الآن السكثرة الغالبة من سكان العالم .

وقد أصبحنا الآن نعلم علم اليقين ما لم يكن يدور بخلد أسلافنا في القرن العشرين ، وهو أن العقل البشري ، إذا تحرر من الجوع والخوف وما إليهما من وسائل الإكراه البدائية ، لا يشغله التفكير المنتج المبدع فحسب ، بل تشغله أيضاً دوافع الرحمة ببنى الإنسان ، والرغبة في إسداء المعونة لهم ؛ وشاهد ذلك أن الذين يشرفون الآن على عوامل الإنتاج والتوزيع والنقل

يؤدون عملهم لأنهم يجدون فيه لذة وممتعة ، ولأنهم يحبون أن يروا الأداة التي يشرفون عليها سائرة على أحسن نظام ، تنتج أكثر ما تستطيع إنتاجه من الطيبات لبني الإنسان . وهم يجدون راحة البال ورضاء الضمير إذا رأوا أن في مقدورهم أن يحذقوا ما يؤدونه من الخدمات لغيرهم من الناس ، وإن لم يحذقوا أداءها لأنفسهم . فالحلاقون وصانعو الأحذية والملابس وأمثالهم ممن يعملون في المتاجر الكبيرة يختلفون الآن كل الاختلاف عن أمثالهم القدامى الخاضعين للتدليل ، الذين كانوا يحملون أسلافنا في عيون الناس . فهم الآن يوجهون كل عنايتهم إلى تجميل عملائهم ، ويحرصون على راحتهم ، لا على كسب المال لمن يستخدمونهم . لقد كانت الآداب القديمة ملأى بألفاظ الاحتقار للحلاقين وصناع الأحذية والملابس ، وكان احتقاراً متمزجاً في غالب الأحيان بالكراهية والغيظ ؛ وكان الحذاء يقتص من عميله الذي يزدرية بأن يضيق الحذاء على أصبعه وعقبه ؛ ويخيل إلينا أنه هو وصانع الملابس لم يكونا يعملان أكثر من تقطيع الشعر والقماش . وقلما كان الإنسان يقوم من أمام الحلاق غير مثخن بالجراح . أما حلاق هذه الأيام فهو رجل يختلف عن سميّة في الأيام الماضية ، فهو حلاق وطبيب أسنان ، زين رؤوسنا ويعنى بأسناننا ، ويفحص أفواهنا وشعرنا وجلدنا ، ليكشف عما عساه أن يكون فيها كلها من أمارات الضعف ، فنخرج من عنده منتعشين مستبشرين أو محذرين . وكثيراً ما يزورنا صديقنا صانع الملابس ليطلع على مظهرنا العام ويرشدنا إلى ما يصلح من هيئتنا بتغيير بعض عاداتنا أو ضروب رياضتنا .

وقد زالت الفوارق الحادة التي كانت تفصل بين حرف التوزيع والمهن

الاستشارية ، فهي الآن على اتصال دائم بالمشرفين على الرق والتطور ، وهم الذين حلوا محل المعلمين والمربين والمربيات وأمثالهم وأمثالهن من رجال العهد القديم ونسائه ؛ كما أنهم أيضاً على اتصال وثيق بالمستشارين العاملين الذين يقومون الآن بأعمال محامى الأسر وقساوستها ووكلائها ومن إليهم . وتبلغ نسبة الذين يعملون في هذه المهن الاستشارية والتوجيهية إلى جميع السكان ضعفي نسبة المحامين والمعلمين والأطباء إلى سكان العالم في القرن التاسع عشر أو ثلاثة أضعافها . وهؤلاء أيضاً يتمتعون بصلة وثيقة إلى طائفة أخرى وهي طائفة المدرسين الإخصائيين الذين يعملون في تنمية ضروب الحذق والمهارة ، ورفع مستوى التفكير العام ، حتى يمتزج أفرادها برجال الأعمال الفنية ممن يشتغلون بالفنون الجميلة والآداب الرفيعة والبحوث العلمية .

ويؤدى المنتجون الأولون والزراع والمهندسون والكيميائيون ورجال النقل ومديرو الصناعات واجباتهم وهم راغبون في أدائها ، راضون عنها ، مغتبطون بها ، يحبون المادة التي يعملون فيها ، ويحبون ما يواجههم فيها من الصعاب ، ويحبون النظام السائد في أيامهم . ولم ترد نسبة هذه الطبقة إلى سكان العالم على ما كانت عليه في العهود القديمة رغم الزيادة المستمرة في نصيب الفرد من طيبات العالم ، ورغم التحسن المستمر في نوع هذه الطيبات . ذلك أن الحذق والإتقان يزدادان كلما زادت الحاجات والرغبات ، وينتفع بالمدة التي يلزم الناس جميعاً بقضائها في الخدمة الإجبارية وقدرها سنتان ونصف سنة — وهي جزء أساسى من نظام التربية في هذه الأيام — في القيام بجزء كبير مطرد الزيادة من الأعمال المجتهدة التي لم يتيسر الاستغناء عنها بعد .

ويبدو أن تحرر الجهود البشرية من حاجات الإنسان الأولية سيستمر إلى ما شاء الله ، وأن جميع القوى التي شكلت حياتنا الاجتماعية في جميع أنحاء العالم ، والتي لا تزال تسييرها في طريقها المرسوم ، تسخر هذا النشاط المحرر لكسب علم جديد وتجارب جديدة . وكذلك تسمو مقاصد الإنسان وغاياته فيصبح أشد رغبة في المعرفة ، وأكثر جرأة ومهارة ، وأعظم حبا لعمله على مر السنين . وكلما زاد علمنا بما في العالم من خيرات ، وما فينا نحن من قوى مكنونة ، زاد ثراؤنا ونعيمنا ، ولم يبق لدينا شك في أن هذا الكوكب ، الذي كان يبدو فيما مضى قاسيا ضئيلا على بني الإنسان ، رحيم خيّر لا تنفد رحمته ولا نعمته . على أن أعظم ما كشفه الإنسان في هذا العصر الحديث كشفه حقيقة نفسه وما في وسعه أن يسمو إليه . لقد كان ليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci^(١) بما وهب من سعة الفكر والرغبة في الابتكار والتطلع إلى المعرفة والقدرة على العمل المنتج — كان من طلائع الإنسان الجديد الذي يعيش على الأرض في هذه السنين .

(١) ليوناردو دا فنشى . Leonardo da Vinci (١٤٥٢ — ١٥١٩)
مصور ومثال ومهندس وموسيقى إيطالي مشهور . أهم ما بقى من آثاره صورة « العشاء الأخير » في دير سانتا ماريا وصورة مونا ليزا Mona Lisa المحفوظة في متحف اللوفر ، وله عدة صور أخرى في متحف اللوفر والمتحف البريطاني .

حلم صياد

بقلم

جون جولزورثى John Galsworthy

١٨٦٧ - ١٩٣٣

[تخرج فى أكسفورد وتعلم القانون ، ولكنه فضل الاشتغال بالأدب ، فكتب عدة روايات يصور فيها الحياة فى عصر الملكة فكتوريا والملك إدورد السابع ، ونشر فى عام ١٩٢٤ ثلاث روايات صور فيها الحياة فى لندن بعد الحرب الكبرى الماضية وأتبعها بعدة روايات أخرى كلها من خير ما أخرج فى العصر الحديث .

وكتب جولزورثى مقالات أدبية كثيرة فى المجلات الأدبية ، معظمها فى موضوعات اجتماعية وأخلاقية ، وتمتاز كلها بالعطف على الإنسانية ، وبالتفكير الحر غير المقيد بالتقاليد ، وبالصراحة فى نقد الزعماء الذين كانوا يسيرون دفة الأمور فى أثناء الحرب الماضية .

وجولزورثى كاتب مسرحى ذائع الصيت ، وهوى يستمد حوادث مسرحياته من المشاكل الاجتماعية والأخلاقية القائمة فى الوقت الحاضر ، ويحاول فيها كلها أن يبرز الآراء المتعارضة على لسان أشخاص الروايات . وهو أول من عنى من كتاب المسرحيات المحدثين بجعل لغة الحوار فى مسرحياته هى اللغة العادية التى يتخاطب بها الناس فيما بينهم دون تكلف ولا تنميق ، ولهذا فإن مسرحياته تليد ناظرها على المسرح أكثر مما تليد قارئها] .

٢٣

خرجت في صباح يوم من أيام شهر أغسطس الماضي ، وفي جيبي عدد من الشطائر المحشوة بلحم الدجاج ، وفي يدي إحدى المجلات ، واتجهت في سيري نحو مكان من أمكنة الصيد التي كنت أقصدها لهذا الغرض في أيام الشباب . وكان الجو صافياً واليوم دفيئاً ، أو إن شئت فقل حاراً شديداً ، وخلع هذا على المكان جمالاً لم يكن له من قبل ؛ وكانت الأرض مكسوة بالخلنج والسرخس والكلأ الأبيض في لون القطن المندوف ، واللبد البناني القاتم ، وأشنة المستنقعات الخضراء ، وكانت هذه كلها تتلألأ تحت قبة السماء الصافية الزرقاء . وأعجبت بجمال المكان فانطلقت أسير فيه وحدى إلى ما بعد الظهر بساعتين ، ثم جلست عند ثنية صغيرة ببطن الوادي ، يسيل بجوارها مجرى صغير من الماء ينبع من عين في أعلاه . وبقيت على هذه الحال فترة من الزمان لا يُعكّر هدوئى في أنشائها شيء ، حتى حلق طائر في الجو وأخذ يرفرف بجناحيه ، ثم بدأت آكل شطائري ، فسمعت عصفوراً يسقسق ثم رأيته يرتفع عن الأرض أمامي ، ويدور في الجو حول رأسي ، ثم يحتفي عن عيني في زرقاء السماء ، فأذكرني هذا أيام الشباب التي قضيتها في الصيد في هذا المكان . وبعد أن فرغت من طعامي القليل أشعلت لفافة ، وفتحت المجلة ، وأخذت أقلب صفحاتها في هدوء وقلة اكتراث . ولم أكن شديد الحرص على القراءة ، فقد كان الأثر الذي أحدثه في نفسي هدوء المكان وسكونه أقوى من أن يسمح لي بالتفكير في غير هذا المنظر الجميل . لكن قصة مثيرة من القصص التي كانت تحتويها المجلة استرعت التفاتى ، وهي قصة أسدين من أكلة اللحوم البشرية ، فبدأت أقرأ ولم أضع المجلة من يدي

حتى انتهيت إلى موت الوحشين الضارين . وشعرت بنار اللفافة تحرق
إصبعي ، فأطفأتها في الأرض الرطبة ، واستلقيت على ظهري ، وعيناي
تنظران إلى السماء ، أو قل لا تنظران إلى شيء ، وعقلي لا يفكر في شيء .
ثم خيل إليّ فجأة أني أرى في الجو ثلاث حمامات تحوم فوق رأسي ،
وتهبط نحوي ، وحسبتها تقترب بعضها من بعض ، ثم تعود فتبتعد . وبدأ
لي كأني أسمع حديثها وإن كنت لم أفهم منه شيئاً . ولم يلبث هذا الظن أن
أصبح يقيناً ، فقد وصل صوتها إلى أذني وسمعتها تقول : انظروا إليه ، انظروا
إلى الوحش الضاري ! انظروا إليه ! .

وارتعت لهذا الحادث الخارق لجميع قوانين الطبيعة المعروفة ، فأخذت
أرهف أذني وعندئذ سمعت قطاة عجوزاً تقول في وضوح « ارجع . ارجع »
فأدبرت وجهي في حذر نحو مصدر الصوت ، فرأيت القطاة لا تبعد أكثر
من عشرين متراً عني . ولم أصدق أول الأمر حواسي ، لأنني كنت أعرف أن
كل ما بذل من الجهود للمجيء بالقطاة إلى هذا المكان قد فشل لأسباب
ترتبط بطبيعة الأرض ورطوبة الجو ، لكن هذا الشك زال على الأثر
حين سمعت القطاة تنادي فجأة . انظر إليه ! عد إلى مكانك ! إنه الوحش
الضاري ! عد إلى مكانك ! ، وخيل إليّ أنها تتحدث إلى شيء آخر في أسفل
الوادي غير بعيد عنها . وما كان أشد دهشتي حين رأيت لأول مرة أرنباً بريافياً
هذه البطاح . فقد كنت أعتقد على الدوام أن الأرنب البري حيوان ظريف
لا يشترك في هذا الحديث الدميم ، وكثيراً ما كان يحزنني أن أصيب ذلك
الحيوان في أثناء الصيد ، لأنه يئن كائين الطفل إذا لم يقض نحيبه على الفور ،
ولهذا فإني حين سمعته هو أيضاً يقول : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش

الضارى ! انظروا إليه » ، سرى فى جسمى شعور شبيه بشعور المظلوم الذى يؤخذ بجريرة غيره .

وفى هذه الساعة عينها أحسست بتيار من الهواء دفى ، ورأيت على بعد قليل منى ديكاً فخماً جميلاً لا يفترق فى شيء عن ذلك الديك الذى صدته فى الموسم الماضى ، والذى يُزين ذيله قبعة زوجتى إلى هذا اليوم . وشاهدت معه أربع دجاجات من جنسه ، سنجابية اللون ، وقد اجتمعت كلها فى نصف دائرة من حوله وأخذت تصيح فجأة : « انظروا إليه ! انظروا إليه ! » ولست أخفى على القارىء أننى فى هذه اللحظة ندمت على ما فرطت فى قتل ما كان يصادفنى من الدجاج السنجابى حرصاً منى على الإكثار من نسله كما يفعل الصيادون الحقيقيون .

وظللت بضع دقائق حائراً مندهشاً ، لا أكاد أدير وجهى فى ناحية من النواحي حتى أرى بالقرب منى طائراً من الطيور الكثيرة التى مررت علىّ فى أثناء حياة الصيد الطويلة فى بلادنا كلها ، ويكاد عددها يقرب من عدد ماصدته طوال أيامى الماضية ، وقد جلست كلها فى دائرة كبيرة تحرك مناقيرها يمنة ويسرة ، كما تفعل طيور البطريق Penguin فى الأشرطة التى يصورها لنا رواد الأقاليم القطبية الجنوبية ، وهى تردد كلها هذه العبارة البغيضة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! »

واشتد عجبى حين رأيت وراء هذه الدائرة الواسعة من الطير جماعات من الحيوان المستوحش مختلفة الأجناس . رأيت ما لا يقل عن خمسة أنواع من الطباء ، بعضها من حيوان هذه البلاد وبعضها مما شاهدته فى أمريكا ، وما صدته على ظهر الخيل فى مراعى جنوب أفريقية ، واتخذت من لحمه

طعاماً شهياً ، ومن جلده زينة وفراشاً وثيراً . ورأيت الضبع الذى كدت أخطئه ، والذى غضبت حين رأيته يقوم بعد أن أطلقت الرصاص عليه .

ولم تتخلف الأرانب البرية بطبيعة الحال ، بل جاءت جماعات منها تعد بالمئات ؛ ولم أكن أعرف حتى هذه الساعة أنى صدت منها هذا العدد الكبير ؛ وكل ما أذكره أنى لم أكن أعنى كثيراً بصيدها ، وأن ألد المناظر عندى أن أراها تنطلق جماعات حين تسمع دوى البنادق . وشاهدت بين هذه الحيوانات النعامة التى طاردها حتى صرت على بعد نصف ميل منها ، ثم رميتها ، ولم أدر بعد ذلك ما حل بها فقد اختفت وراء الأفق البعيد .

وكان بجوار النعامة الدبة التى شاهدتها بقرب عرينها ، وإلى جانبها فهذان صغيران . فلما أبصرتنى اختبأت بين الأعشاب ، ولكننى رميتها محاذراً أن يصيب الرصاص الفهدين الصغيرين ، ثم رأيتهما يتسلقان الشجرة الكبيرة التى كانا من تحتها ، ويختبئان بين الأعصان لينقضا على ما أتركة ورأى من الظباء والضأن والكلاب والخنازير وغيرها من الحيوانات . ولست أدرى لم أقبلأ فيما أقبل من الحيوان ، مع أنى لم أصبهما بأذى ، ولكنهما جاءا ما فى ذلك شك ، وأخذتا يتفرسان فى وجهى بعيونهما الزرقاء القوية . وجلس إلى جوارهما قط برى صغير لا يزيد كثيراً على حجم ابن عرس ، ولكنه كان مقطوع الرأس . وتذكرت أنى صدته حين كنت أختبر البندقية الجديدة الصغيرة التى استعرتها من صديق فى إحدى الرحلات ؛ وكان هذا القط جالسا فوق جحره بعيدا عنى ، يجهل ما كان يحقد به من الخطر ، فأطلقت الرصاص عليه ، وكانت طلقة قوية ذهبت برأسه ، فسقط المسكين من فوره فوق جحره . وإنى لأذكر الآن ما شعرت به أنا ورفاقى من فرط السرور حين أصبته .

ورأيت في خارج الحلقة ثعالب تسير وحدها بعيدا عن سائر الوحوش المستقرة في أماكنها كأنها تخشى أن تعلم الحيوانات الأخرى أنني صدها؛ وكان من بينها ثعلب صغير أعرج يمشي على ثلاث أرجل، وهو الثعلب الذي أُعْطِيتُ ساقه وأنا طفل لأحتفظ بها فيما أحتفظ به من التمايم؛ وقد وضعت هذه الساق في صندوق قبعتي ونسيت كل شيء عنها حتى نلت، ورأيت ألا بد من التخلص منها هي والصندوق جميعا. وكان بالقرب من هذا الثعلب طائفة من الثعالب الكبيرة لم تر من اللياقة أن تجلس مع الثعالب الصغار.

وجملة القول أنه قد احتشدت في تلك الساحة جموع كثيرة من الطير والحيوان شملت كل ماصدته منها في حياتي، أو كنت السبب في مقتله بطريقة ما؛ ورأيتها كلها تنظر إلى وتهامس قائلة: « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضاري ! انظروا إليه ! ».

وآلتني هذه الألفاظ وأحفظت قلبي على هذه الحيوانات؛ وكنت كسائر الصيادين كثير العطف عليها؛ فإذا كان هناك ما نفخر به نحن الصيادين، ونفخر به بحق، فهو ما تنطوى عليه صدورنا من شفقة على جميع أنواع الحيوان والطير؛ وليس في الناس كلهم من لا يعرف أننا أكثر الناس حرصا على تخفيف ما تُعانيه من آلام لا ضرورة لها.

وأخذ حديث هذه الجموع يعلو شيئا فشيئا، ويزداد وضوحا كلما اعتدت سماعه؛ وكان أول ما تبينته منه قول السماني: « لقد أكلني ما في ذلك شك، وما من شك أيضا في أنه قال إنني طعام شهي » وقال أرنب كان هو أول من نطق من الأرانب: « لست أظن أنه صادني لهذا السبب. لقد أطلق

الرصاص على وقتلني ولكنه لم يمسنى بيده ، وصاد في نفس اليوم أحد عشر زوجاً من الحَجَل ، أليس كذلك ؟ » ونطقت اثنتان وعشرون حجلة بصوت واحد قائلة : « بلى ! » ورد عليها الأرنب قائلاً : « لم يأكل منكم إلا اثنتين — وهذا دليل على أنه لم يكن في حاجة إلينا ليأكلنا » .

وسببت لي عبارة الأرنب شيئاً من الراحة ، إذ كنت قد آلمني ما عساه أن يفهم من قول السمانى إننى رجل نهم لا أصيد إلا حبّاً في الأكل . ولست أشك في أن كل صياد عارف بآداب الصيد ومبادئه السامية يوافقنى على هذا الرأى .

ولما فرغ الأرنب من حديثه سرى في الجمع كله لغط لم أتبين أول الأمر معناه ، حتى قال أحد الفهدين الصغيرين : « إننا معشر الوحوش آكلة اللحوم لا تقتل إلا حين نشعر بالحاجة إلى الطعام » وقالت الدبة : « إن الدبة لا تقتل شيئاً تعجز عن أكله » ثم سمعتُ بطة بريّة تقول : « أما نحن فنأكل كل دودة نعثر عليها ، وفى وسعنا أن نأكل أكثر مما نحصل عليه إذا وجدنا السبيل إلى ذلك » .

ثم علت في الجمع تلك الصيحة الرهيبة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! » .

ولاح لي أنها كلها رغم كثرة عديدها تخشانى ، بل ترهبنى وتفزع من رؤيتى ، وأنا الرجل المحب للحيوان ، وليس معى الآن سلاح . ولشد ما آلمنى هذا وأقض مضجعى ، وقلت لنفسى : « كيف لا يدرك واحد من هذا الطير أو الحيوان معنى الصيد وحقيقته ؟ إني ليخيل إلى أن ليس فيها كلها من يفهم تلك الغريزة التى تحبب الإنسان فى الصيد لما فيه من ... خطر » .

وواصل الأرنب حديثه قائلاً : إن الثعالب تقتلُ حُبَّاً في القتل . وما الإنسان إلا ثعلب » . فلما سمعت الثعالب هذا القول رفعت عقيرتها احتجاجاً عليه ، وقام واحد منها ولعله كبيرها وقال : « لا جدال في أننا نقتلُ أكثر مما نستطيع قتله ، ولكننا لا نتردد في أن نحمل معنا ما نقتلُ لنا كُله إذا أمكننا الإنسان من حمله وأكله ، ولكنه لا يمكننا منه — ذلك الوحش الضاري » . إن الثعالب ما كره خداعة ، ولكن أخبت ما سمعت من مكرها وخداعها قول كبيرها هذا إن الإنسان أشد منها فتكاً وهو الذي يعرف بلاريب كيف نحافظ نحن الصيادين على نسل الثعالب لنتمتع أنفسنا بصيدها . وصاحت دُرَّاجة بصوت رفيع : « لقد قتلنا ستمين في يوم واحد ، ثم تركنا من فوره ولم يأكل منا جناحاً » وعلت الصيحة الرهيبة مرة أخرى : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضاري ! انظروا إليه ! »

ولم يكن شيء أسخف من هذا القول . كأنى بهم لا يعرفون أن الصياد لا يكاد يصيد إلا ليطعم غيره ؛ وكدت أرد عليهم ، ولكنني آثرت الصمت حين ذكرت أن الإيثار خلة يمتاز بها بنو الإنسان .

وقال عصفور من عصافير الغاب : « إنهم يبيعوننا بثمان غال ، وبخاصة إذا صادونا في بداية الموسم ، وقد اشتريتُ أنا بعدة شلنات » . وقلت لنفسى : ألا ما أجهل هذه الطيور ! كأنى بها تعتقد أن الصياد الحديث يعرف ما يؤول إليه أمر صيده بعد يوم واحد من اصطيداده ! إنه يترك هذا كله لرئيس خدمه ولحرَّاسه . وقال أرنب آخر : « لقد كان من حق بنى الإنسان على أن أقول إنهم ليسوا أسوأ كثيراً من الثعالب ، لولا أنهم كثيراً ما يعذبوننا بتركنا نعاني آلام الموت ساعات طوالاً . لقد

ظلمت أنا أعانى سكرات الموت سبع ساعات كاملة ، وظل أخ لى يعانيتها اثنتى عشرة ساعة . أليس كذلك يا أخى ؟ » وأوماً أرنب آخر برأسه مؤمناً على على قوله وزاد عليه : « ولكن هذا قد يكون خيراً من اقتناصنا أحياء » . وتمتت حجة قائلة : « ألا ما أقسى الإنسان . إن الثعالب مهما بلغت قسوتها تفصل الرأس عن الجسم فوراً ، أما الإنسان فكثيراً ما يكسر جناحك أو ساقك ثم يتركك على هذه الحال بقية أيامك » . وعلت فى الجو مرة أخرى تلك الصيحة الرهيبة : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه ! » ولم أعد بعدئذ أطيع صبراً على هذه الحال ؛ ولو أننى كنت أستطيع القيام لهجمت عليها وأعملت فيها . . . يدي ، ولكننى شعرت كأن أثقالاً كالرصاص تربطنى بالأرض من تحتى ، وكل ما كان فى وسعى أن أفعله فى هذه الساعة أن أحمد الله الذى أخفى عنها — فى ظنى — حقيقة أمرى . فلو أنها عرفت أنى أعزل لكان لها معى شأن آخر لأعرف ماهو ؛ ذلك أن عواطف الشهامة والبرورة ، كما نعلم كلنا ، ميزة اختص بها بنو الإنسان . وردت عليها دجاجة ضخمة بصوت عال بطيء : « إنك طائر خواف سريع الحرب . ولقد حاول كثيرون غير هذا الإنسان أن يصيدونى ، ولكنهم لم يفلحوا ، ومع أننى قوية الجسم سريعة العدو فإننى لم أكن أنجو من إصابة أو اثنتين فى جسمى . وماذا كان فى وسعى أن أفعله عندئذ ؟ إن هؤلاء الوحوش من بنى الإنسان إذا أصاب بعضهم بعضاً خطأ استطاعوا أن يخرجوا الرصاص من وجوههم وأيديهم ، ولقد رأيتهم بنفسى يفعلون ذلك . أما نحن فعاجزون عن هذا كل العجز . » وأجابتها قطعة بصوت حاد : « إن

الذى يضايقنا نحن معشر القضا أنه لا يأكلنا إلا بعد أن يكاد يشبع من غيرنا .
لقد كان دورى أنا الدور الخامس ، وذلك يؤلم شعورى ويجرح كرامتى .
« ما أقساه من وحش ضار ! إنه يقتل كل ما يراه » .

« وأحسست بالدم يغلي فى رأسى ، وهممت أن أصيح بأعلى صوتى :
« أيتها الوحوش . إنكم لا تعرفون أننا نحن الإنجليز الخالص لا نقتل كل
ما نرى ، وإنما يفعل ذلك الأجانب وأهل لندن » . ولكننى أحسست
أنى عاجز عن الكلام كما أحسست من قبل أنى عاجز عن الحركة . ثم هبط
على من فوقى صوت رقيق يقول : « إنهم لا يصيدوننا نحن معشر القنابر » .
وحمدت لهذه القنبرة الصغيرة أنها لم تنكر حى لبنات جنسها حتى قالت :
« ولكنهم يفعلون بنا ما هو شر من الصيد . إنهم يمسون بنا ويحبسوننا
فى مصائد صغيرة من خيوط الحديد الرفيعة حتى نهلك غما وكدا . إنهم
وحوش ضارية ! » ولم أشعر بالألم فى يوم من أيام حياتى كلها كما شعرت بها
فى تلك اللحظة . وقال الفهد الثانى : « لقد أوشك يوما ما أن يقتلنى .
فماذا ترون أيها الصحاب فى أن ننقض كلنا عليه ؟ » وعلت فى الجو صيحة
رهيبية : « انقضوا عليه ! الوحش الضارى ! انقضوا عليه ! » وسمعت صوت
مئات من الأجنحة الرقيقة تخفق فى السماء ، ومئات من الأرجل تدب على
الأرض ؛ وكنت أعرف أنى لا أستطيع حرا كما فأغمضت عيني وأسلمت
نفسى لقضاء الله ، وحبست أنفاسى ، وظللت جامدا فى مكانى كالصرصور
الذى يتصنع الموت ، حتى شعرت بجموع الحيوان والطيور تطوف من
حولى على الأرض ، ومن فوقى فى الهواء ، وأحسست بها تشم رائحتى .
وكنت أتوقع فى كل لحظة أن أشعر بأسنانها ومناقيرها تنفذ فى لحمى ،

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ففتحت عيني بعد جهد عنيف ورأيتها كلها من حولي قريبة مني ، وهي مقبضة الوجه لسبب لا أعرفه ، وكل الذي رأيته أنها أدارت كل مناقيرها وأنوفها عني ، وسمعت الثعلب الكبير ينادي فجأة : « ليس أكله مستساغاً . إننا لا نستطيع أن نأكله وتلك الراححة الكريهة تنبعث منه » . وأقبل كل واحد منها يشمني ويعطس ، ويدير أنفه ومنقاره ، ثم أخذت تبتعد عني ، وسمعت من بين أصواتها صوت الضبع يقول : « إن لحمه نتن — ذلك الوحش الضاري ! إن لحمه نتن خبيث » .

وشعرت أول الأمر بشيء من الطمأنينة ، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن طغى عليه ما سرى في نفسي من الغيظ لقول هذه الطيور والحيوانات الوقحة إن لحمي أنا الصياد البريطاني لا يصلح طعاماً لها . ثم واصل الضبع حديثه قائلاً : « وأنتم تعرفون أننا قد نستطيع أكله إذا دَفَنَاهُ في التراب بضعة أيام » .

وصاحت قطاة طاعنة في السن : « عودوا إليه ، ولتعلقه في أغصان شجرة كما يفعل بنا بنو جنسه ، فهم يحبون أكلنا بعد أن يدب الفساد في لحمنا — أولئك الوحوش الضارية — عودوا إليه ! »

وأحسست مرة أخرى بخفقان أجنحتها وديب أرجلها ، وأيقنت أنني على قيد شعرات من الموت ، فأغمضت عيني خشيّة أن تراهما هذه الوحوش فتبدأ بهما ، ولكن اضطراري لم يلبث أن زال حين سمعت القطاة تقول : « إذا فحنح لا نستطيع أن نأكله فوراً ، وما لا نستطيع أن نأكله فوراً لا نمسه أبداً » .

وصاحت الطيور كلها بصوت واحد : « لن نقتله ، إن هذا لا يفعله إلا الغراب ؛ وشعرت للمرة الثانية أنى نجوت من الموت حتى قال طير من طيور الماء ذلك القول الرهيب : « اقتلوه واحشوه ، وانصبوه رمزا للوحشية الضارية ، أو علقوا جلده على شجرة وانظروا إليه كما فعل هو بي » . وظلت دقيقة كاملة أسمع الطيور والوحوش تتبادل الرأى فى هذا الاقتراح الرهيب ، حتى صاح الديك الأسود الذى تحتفظ زوجتى بذيله فى قبعتها : « أتقولون إنه رمز للوحشية ؟ إنه لا يصلح رمزا لها » . وعندئذ تنفست الصعداء على الرغم من غضبى الشديد لهذه الإهانة الصريحة . ثم قالت الدبة بصوت هادئ : « دعونا من هذا كله ، وهيا نبصق عليه ثم نتركه وشأنه . إن هذا الوحش الضارى غير جدير بأكثر من البصق » . وانقضت فترة من الزمان خلتها الأبدية كلها ، كانت فيها هذه الحيوانات والطيور تمر بى وتلقى على قطرة صغيرة من لعبها ، وتنظر إلى عيني نظرة رعب واحتقار ثم تختفى فى السهل . وكان آخر من مر بى منها تلك القطعة البرية الصغيرة المقطوعة الرأس . لقد وقفت إلى جانبي لا تستطيع أن تنظر إلى عيني أو تبصق على ، ولكنها استطاعت بطريقة ما أن تقول : « إنى أصفح عنك أيها الوحش الضارى » ثم ابتعدت عنى هى الأخرى ، وعلت فى الجو من جديد تلك الصيحة الرهيبة التى رددت صداها الأرض والماء والهواء : « انظروا إليه ! انظروا إلى الوحش الضارى ! انظروا إليه » .

وجلست وكان صدى الصوت لا يزال يتردد فى أذنى ، ونظرت إلى السماء فرأيت طيراً أزرق من طيور الماء يمر من فوق ، وحمدت الله إذ أيقنت أنى كنت نائماً . وكان منشأ هذا الحلم الذى رأيته فى النهار هو لحم الطير الذى

كان في شطيرتي ، وضغط المجلة التي وضعتها فوق صدرى مفتوحة عند الصفحة التي كنت أقرأ فيها عن الأسدين آكلى اللحوم البشرية وعن موت هذين الوحشين . وما أشد ما تستطيع الأشياء الصغيرة أن تحدثه من الاضطراب في عقل الإنسان ، حين لا يكون هذا العقل تحت سيطرته . وأردت أن أزيل من فى كل أثر لهذا الطعام الذى أكلت ، ومن نفسى كل ما بقى فيها من هذا الشعور المؤلم ، فقامت من فورى واتخذت طريقى إلى منزلى .

كلى دندى

بقلم

وليم هنرى هدرسن William Henry Hudson

توفى فى عام ١٩٢٢

[من كتاب هذا الجبل ولد فى أمريكا الجنوبية وبدأ حياته بأسا فقيرا ، وقد وصف هذه الحياة وصفا ممتعا فى كتاب له عنوانه « فى البلد البعيد والزمان القديم » Far Away & Long Ago . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أصيب بمرض عضال جعل حياته من بعد ذلك صراعا بينه وبين المرض والفاقة ، ثم جاء إلى إنجلترا وتجنس بالجنسية الإنجليزية فى عام ١٩٠٠ . وكان منذ حداثة سنه مرهف الحس دقيق الملاحظة وبخاصة لأنواع الطير ، ويقول عنه جولدورزى Galsworthy إنه كان أدق علماء الأحياء ملاحظة وأوسعهم عقلا ، وأعظمهم تفكيرا . وله كتب كثيرة فى حياة الطير والحىوان]

٢٤

كبير الجسم ، بشع المنظر ، كث الشعر ، رمادى اللون ، أبيض الغنق ، ضخيم الخلبين ، من سلالة خليطة غير نقية . كان حين عرفته قد تقدمت به السن ولم يبق له إلا القليل من حاستى السمع والبصر ، لكنه

كان فيما عدا ذلك قوى الجسم ، خفيف الروح ، مرحاً طروباً على الدوام . وكان دندى أكسل خلق الله طراً ، نعم إنه لم يكن يتكىء برأسه على الحائط حين ينبج ، ولكنه كان يظهر كسله بطرق أخرى غير هذه الطريقة . ولقد كان كثير النباح ، ولكنه لم يكن ينبج إذا رأى شخصاً غريباً ، بل كان من عادته أن يحكي كل غريب ، ومنهم جامع الضرائب نفسه ، بأن يهز ذيله ويتسمله . وكان يقضى معظم وقته في المطبخ الكبير حيث أعدت له أريكة ينام عليها . وإذا ما أرادت قطتا الدار أن تخذلا إلى الراحة ساعة من الزمان وجدتا منها على جنبه ما لا تجدانه على الوسادة أو البساط ، وكأنه هو أيضاً كان يجد فيهما غطاء دفيئاً له ، فيفيد منهما ما تفيدانه منه . وكان دندى بعد أن يقضى في النوم ساعة يتروض قليلاً في الطريق العام المجاور للدار ، فيصطدم فيه أحياناً بالمارة ، ويهز ذيله لـكل من يراه ، ثم يعود إلى الدار . وكان يخرج ست مرات أو ثمانية أو أكثر في كل يوم ، ولكنه كان يلاقى في الدخول والخروج مشقة كبيرة لما طبع عليه من الكسل ، فقد كان يجد الأبواب مغلقة دونه . وفي هذه الأحوال كان يجلس في فناء الدار وينبج طويلاً حتى يأتي من يفتح له الباب ، فيخرج منه إلى حديقته على مهل ، فإذا وجد الباب الخارجى مغلقاً عاد إلى النباح حتى يفتح له هذا الباب أيضاً ، لكنه إذا نبج عشرين مرة أو ثلاثين ولم يسعفه أحد بفتحه فتحه هو بنفسه ، ولم يكن فتحه ليصعب عليه ، ثم خرج منه ؛ وبعد عشرين دقيقة أو نحوها يعود إلى الباب الخارجى وينبج طالبا الدخول ، فإذا لم يجد من يعنى بأمره فتحه بنفسه ودخل .

وكان دندى إذا جلسنا إلى المائدة يجد على الدوام ما يأكله ، ولكنه

كان يجب أن يعطى شيئاً من الطعام بين الوجبات مرة أو مرتين في اليوم .
وكان بسكوت الكلاب يوضع له في صندوق مفتوح على رف منخفض
ويأخذ منه واحدة كلما انتهى ، ولكن ذلك كان يكلفه من المشقة ما لا
يطيق ، ولذلك كان يجلس بجوار الرف ينبج نباحا يمتاز بشدة وعمقه ، فإذا
وجد إنساناً مصادفة في المطبخ أو بجواره ، سارع إليه بعد خمس ثوان من
نباحه ليعطيه حاجته من البسكوت حتى يسكته ويهدىء من تأثرته ، فإذا
لم يأت أحد قام إليه بنفسه وأخذه وأكله .

وحدث في آخر سنة من سنى الحرب الكبرى الماضية أن عز طعام
الإنسان والحيوان ، أو قل إنه امتنع فعلا في بلدة دندى . وآلم دندى ألا يجد
بسكوته ، فكان كثيرا ما يذكرنا به بنباحه العالى ، وكان يذهب أحيانا إلى
الصندوق الفارغ ويشمه ويضربه بيده حتى لا تشك أنه ينبج طلبا للبسكوت .
ولعله كان يظن أن منشأ تلك الحالة الجديدة أن أصحاب البيت كانوا ينسونه
عندما يذهبون إلى السوق في كل صباح ، ويعودون منها وليس معهم طعامه
المعتاد . وذهبت إلى المطبخ في يوم من أيام الشتاء الأخير من سنى القحط
فوجدت أرضه قد تناثرت عليها قطع صندوق البسكوت . وكان دندى
نفسه هو الذى فعل هذه الفعلة بالصندوق ، فقد جره بيده من مكانه إلى
وسط المطبخ ، وأخذ يعضه ويمزقه بأسنانه ، ويلقى بقطعه على الأرض .
وفاجأه بعض أهل الدار حين أوشك على الفراغ من عمله ، وكان من رأيه أن
الذى دفعه إلى تمزيق الصندوق على هذا النحو هو أنه أحس في كل قطعة من
القطع الممزقة طعم البسكوت . أما الذى أراه أنا فهو أنه لما كان الصندوق
قد وضع في هذا المكان ليكون فيه البسكوت ، ثم أصبح لا يحتوى على

شئ منه ، فقد كان دندى يعده عديم النفع — وأنه قد فقد وظيفته إذا صح ذلك التعبير — وأن في وجوده في ذلك الموضع إهانة له وسخرية من ذكائه ، وإغراءً مستمراً له على الذهاب إلى ذلك المكان بضعة مرات في اليوم ليجد الصندوق فارغاً في كل مرة . ولعله قال في نفسه إن من الخير إذاً أن يزول هذا الصندوق من أمامه ، ولا شك في أنه كان مغضباً بعض الغضب وهو يفعل به ما فعل .

ولم يذق دندى الخمر قط من يوم أن عرفته ، أما في أيامه الأولى فقد كان مولعاً بشربها ، وقد قيل إنه كان في تلك الأيام الحالية إذا أظهر له أحد زاجرة الشراب هز ذيله علامة على السرور ، وإنه كان يعطى مقدارا قليلا من البيرة في أثناء الطعام ، ثم حدثت له حادثة رأيت بعد شئ من التردد أن أقصها على القارئ ، فقد تكون أهم ما حدث له في حياته كلها ، وهي حياة قليلة الأحداث .

كان دندى ككل الكلاب شديد التعلق بأحد أفراد الأسرة لأنه كان يأخذه معه حين يذهب للتنزه في خارج الدار ، وقد ذهب معه في يوم من الأيام إلى حانة قريبة ليفاوض صاحبها في أمر ذي بال ؛ وذهب الرجلان ومعهما دندى إلى مستودع الشراب ، ورأى الكلب أن الحديث قد يطول فألقى واستعد للنوم . واتفق أن كان في الحجرة دندى من الخمر ذو صنبور غير محكم الإقفال ، وقد وضع صاحب الحانة تحته إناء يتلقى ما يتساقط منه ، واستيقظ دندى من نومه وسمع تساقط قطرات الخمر فاتجه نحو الإناء وشرب منه ما أراد ، ثم رجع إلى مكانه .

واستغرق في النوم ، وعاد فاستيقظ منه ، وشرب جرعة أخرى من الخمر

وكرر ذلك خمس مرات أو ستًا . وكان الرجلان قد فرغا من حديثهما ، وخرج دندى مع سيده ولكنهما ما كادا يسيران فى الطريق حتى بدت على الكلب علامة السكر ، فأخذ يترنح يمنة ويسرة ويصطدم بالمارة ، ثم سقط فى مجرى سريع من الماء القذر كان يؤدى إلى بالوعة فى الطريق . وخرج الكلب من الماء وعاد السير من جديد وهو يحاول أن يكون دائما قريبا من الجدران حتى لا يصيبه ما أصابه فى المرة السابقة . وأخذ الناس ينظرون إليه ويعجبون من أمره ويسألون عما أصابه ويقولون : « هل أصابته نوبة أو ماذا دهاء ؟ » وأجابهم صديق دندى أنه لا يعرف شيئا على التحقيق ، وكل ما يعرفه أنه طرأ عليه أمر غير عادى ، وأنه سيأخذه إلى المنزل بأسرع ما يستطيع .

ولما وصلوا إلى المنزل ارتقى دندى على أريكته ، وألقى برأسه على وسادته ، ونام نوما عميقا ، وظل نائما حتى صباح اليوم التالى لم يستيقظ ساعة واحدة ، فلما صحا من نومه كانت آثار الخمر كلها قد زالت عنه ، ولاح أنه قد نسى كل شيء مما أصابه فى اليوم السابق . ولكنه حين رأى أحد أفراد الأسرة يمسك بيده قدحاً من البيرة ، ويناديه يا دندى ، لم يهز له ذيله كما كان يفعل ، بل وضع القدح بين ساقيه وولى وجهه عنه فى اشمزاز ظاهر . ومن ذلك اليوم لم يذق دندى للخمر طعاما ، ولم يكن ثمة شك فى أنه كان يفهم أن أهل البيت يسخرون منه حين كانوا يحاولون أن يغروه بالشراب بأن يضعوا البيرة أمامه ويدعوه بابتساماتهم إلى شربها ، فكان فى هذه الحال يدبر عنهم ويعوى عواء الغضب ، ولم يكن شيء غير هذا يغضبه من أصدقائه ورفاق حياته .

ولم أكن لأسىء إلى دندى بإفشاء هذا السر لو كان دندى الآن على قيد الحياة ، لكنه مات بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمره ، وهو عمر مديد من أعمار الكلاب . وكأنه أراد أن يعيش حتى يشهد نهاية الحرب الكبرى الماضية ، فما كادت الهدنة تعلن حتى اعتلت صحته وأخذت تضمحل اضمحلالا سريعا مطردا ، وفقد سمعه وبصره ولكنه ظل متشبثا بعادته القديمة ، عادة الترويض خارج الدار عدة مرات في كل يوم ، والنباح عند الباب الخارجى ، وفتحته بنفسه إذا لم يأت من يفتححه له . وظل يفعل هذا حتى كان يوم من أيام سنة ١٩١٩ جاء فيه إلى منزلنا في زيارة قصيرة صبية يعرفهم دندى . في هذا اليوم ألقى بنفسه على فراشه ولم يبرحه بعده أبداً ، لا بالليل ولا بالنهار ، ورفض كل ما كان يقدم له من الطعام ، ولم نشك في أن أجله قد اقترب . وقد جرت العادة في هذه البلاد أن يُخَدَّرَ الكلب المشرف على الموت بإعطائه جرعة من الاستركنين تريحه من آلامه ، ولكن ذلك لم يكن واجبا في هذه الحال ، لأن الكلب لم تنتبه آلام قط ، فلم يتأوه في أثناء يقظته أو نومه ، وكنت إذا وضعت يدك عليه هز ذيله كأنه يريد أن يقول لك إنه بخير ، ثم قضى نحبه أخيرا وهو نائم فمات ميتة سهلة هادئة ، ودفن في حديقة المنزل الكبيرة قرب شجرة التفاح الثانية .

جامعة الشَّمر

بقلم

و . ه . ه د سن

٢٥

وقفت يوماً قبيل الغروب على كثيب من الرمال قريب من شاطئ البحر ، أنظر إلى مجوز تسير مسرعة على الشاطئ الرملى ، بعد أن انحسر عنه ماء البحر وتركه رطبا نديا . وكانت الريح تهب من ناحية البحر باردة قوية ، وعجبت من أمر هذه المرأة الضعيفة الهزيلة كيف تستطيع السير مسرعة على الرمال الرطبة لاتكاد قدماها تستقران على الأرض . ورايتها تقف بين الفينة والفينة ، ثم تمنحنى لتأخذ شيئا من الأرض بإحدى يديها . ولم أكن أستطيع أن أتبين ما تأخذه بوضوح لأن الشمس كانت قد مالت إلى المغيب ، وبدأ الظلام يخيم على البر والبحر ؛ وكان الفصل شتاءً والجو باردا فبدا كل شيء فى المكان قاتما قليل الوضوح .

ونزلت من فوق الكتيب ، وسرت إليها فوجدتها عجوزا شطاء الشعر ، عارية الرأس ، شاحبة الوجه ، بارزة الوجنتين ، متناسبة المعارف ، عسلية العينين . ورائتي فوقفت ونظرت إلىّ في سكون . وسرى في جسمي عندما نظرت إلى عينيها تيار من الحزن لم أعرف له سببا ، فقد كانتا تفصّحان عن أسى يدركه الإنسان لأول نظرة . وقد لا يكون حزنها هو منشأ هذا الإحساس بل منشأه الأثر الذي تركه الحزن في عينيها بعد أن تولت عنها

كل مسرات الحياة ومباهجها ، وأقفر قلبها من كل حب ، وخلا حتى من الذكريات العزيزة والآمال الحلوة . تلك هي الأفكار التي طافت بخاطري وقتئذ ، وقد لا تكون حقائق بل أوهاما وخيالات . ولكن الذي لاشك فيه أنه لو كانت هذه المرأة قد جاءت إلى هذه الأرض من عالم غير عالمنا لما بدت أكثر مما هي غريبة ، ولما أثارت في نفسي ما أثارت فيها من إحساس عجيب .

وسألتها ماذا تفعل في مثل هذا الوقت من النهار ؟ فأجابت في صوت هادئ رزين بأنها تجمع الشمر البحرى الذى ينمو على الأرض المستوية الملحة ، ويُسَمَّى ورقاً أخضر قائم اللون شبيها بورق السكرّاث . وقالت إن هذا الفصل أنسب الأوقات لجمعه وتخليله وحفظه ، للانتفاع به طول العام . وكان بيدها سلة تضعه فيها وسكين تقتلع بها النبات من جذوره ، وكيس قديم تضع فيه ما تجده من العصى وقطع الخشب التى يقذفها ماء البحر على الشاطئ . وكان مما قالته أيضا إنها قد جمعت الشمر من هذا المكان نفسه في مثل هذا الشهر عينه سنين كثيرة .

وأطلت الحديث معها عمدا ، وأخذت أسألها وأتصنع الاهتمام بسماع أجوبتها الآلية ، وأحاول في الوقت نفسه أن أسبر غور عينيها الحزيتين اللتين لم تنقطعا لحظة واحدة عن النظر إلى .

وبينا نحن في حديثنا إذ طرقت آذاننا جلبة من الأصوات البشرية ، والتفتنا فرأينا جماعة أو بالأحرى موكبا من لاعبي الكرة بعد أن فرغوا من اللعب وتناول الشاي . وكان عددهم يربى على الأربعين ، منهم الرجال ومنهم النساء ، يسيرون مثنى وثلاث ورباع ، وكانوا عائدين بعد اللعب

إلى فندق مقام لهم في مكان بعيد على شاطئ البحر ؛ وكانت وجوههم باشة ناضرة ، وملابسهم نظيفة أنيقة ، وثغورهم باسمة ، وهم يتحدثون ويمرحون ويضحكون ؛ وكان بعضهم يقيم في الفندق على الدوام ، وبعضهم الآخر ينتظرهم على بابه نحو عشرين سيارة لتقلهم إلى بيوتهم أو إلى بيوت يقيمون فيها غير بيوتهم .

وقطعنا الحديث حين أخذوا يمرون بنا على بعد خطوات قليلة من المكان الذي كنا نقف فيه ؛ وأثار منظرهم في نفسى قصة الأرض التي كانوا يلعبون عليها الكرة من وقت الظهر حتى مغيب الشمس . هذه الأرض ملك لأسرة قديمة ، قد بقيت في يدها من أيام الفتح الترمندى إلى الآن ؛ لكن رب هذه الأسرة أخشى الآن فقيرا لا يملك كغيره من النبلاء بيتا في لندن ، ولا منجما للفحم في ويلز ، ولا يأتيه إيراد من مصدر آخر غير هذه الأرض التي يؤجرها إلى الزراع فتأتيه بريع لا بأس به . ولقد كان هذا الريع كفيلا بنفقاته لو لم يكن له أولاد يعيشون في لندن معيشة لهو وبذخ ، يراهنون على الخيل ، ويقتنون السيارات ، ويترددون على أحسن النوادي . وكان الوالد المسكين يؤدي لهم في كل عام ما يستدينونه من المال لينفقوه في ملاذهم ولهوهم . وكانت حال الرجل تبعث الأسى في قلوب أصدقائه وجيرته ، لأنهم كانوا يعدونه مثلا طيبا لأقدم الأسر وأشرها في هذه البلاد . ووجد الرجل نفسه مرغما على التوفيق بين واجباته لنفسه وواجباته لأولاده ، وكان مما عمله لهذه الغاية أن أنشأ حلقات للعب الكرة على الأرض الرملية المحصورة بين البحر والبلدة القديمة ، وشيد فيها نزلا كبيرا ليجتذب اللاعبين من أنحاء البلاد المختلفة . وحالت هذه

الملاعب بين القرويين وبين البحر ، واعتضت طريقهم إلى الكشبان الرملية العارية التي كانت متزههم من أقدم الأزمان .

وأمرُوا أن يصلوا إلى البحر وإلى شاطئه ، إذا شاءوا أن يصلوا إليهما ، عن طريق آخر طويل يبدأ بعيدا عن البلدة بأكثر من نصف ميل ؛ وخضعوا لهذا الأمر وأطاعوه ، ولم يبدوا عليه اعتراضا ، بل قيل لهم فوق هذا إن عليهم أن يشكروا لصاحب الأرض فضله عليهم ، لأنهم في نظير هذه المشقة القليلة ينالون خيرا كثيرا من وجود اللاعبين في بلادهم ، فهم يستخدمون أبناءهم الصغار في كثير من مختلف الشئون . لكنني تبينت رغم هذا كله أنهم لم يكونوا راضين أو شاكرين ، بل كانوا يعتقدون أنهم ظلموا ، وكان هذا الشعور يؤلمهم ويبعث الحسرة في قلوبهم .

ذكرت هذا كله بينما كان اللاعبون يعمرون بنا في طريقهم إلى النزل ، وسألت نفسي : هل تحقد هذه العجوز هي الأخرى على أولئك الذين حالوا بينها وبين الكشبان الرملية التي كانت هي وأبناء القرية جميعا يسيرون عليها وقت الأصيل ، أو يجلسون أو يرقدون عليها بين الأعشاب ، ومنعومهم من الوصول إلى البحر حيث كانوا يذهبون في كل يوم ليجمعوا ما يقذف به من الأغواد وقطع الخشب ، فيستعينوا بها على حياتهم الشاقة الأليمة !

قلت هذا في نفسي وقلت أيضا إنه إذا كان الأمر كذلك فإني سأبتين أثر هذا الشعور في عيني تلك المرأة عندما ترى أولئك اللاعبين المرحين في طريقهم إلى النزل ، وإلى سياراتهم ومنازلهم المترفة .

ورأيت وجهها مراقبة دقيقة ، ولكنني لم أره يتغير ، ولم أتبين أقل دليل على الحقد أو على غيره من المشاعر . وكل ما هنالك أن السكابة التي

رأيتها من قبل مر تسمية على وجهها ظلت على حالها ، وكانت عيناها أشبه
 بعيني الطير أو الحيوان الأسير ، تتجهان نحونا وكأنهما لا تنظران إلينا ،
 بل تنفذان فينا إلى ما وراءنا . وظل وجهها كما هو لا يتغير بعد أن مر
 اللاعبون جميعا . وانتهينا من حديثنا ووضعت في يدها بعض النقود فشكرت
 دون أن تبتمس ، بصوتها الهادئ الذي أجابت به عن جميع أسئلتى في أثناء
 الحديث . وصعدت مرة أخرى فوق الكتيب ، ونظرت إليها فبدت لي
 كما بدت أول مرة ، إلا أن معارفها كانت أقل وضوحا . رأيتها تمشي
 مسرعة كالفراشة أو كالشبح ، فوق الرمال المنبسطة تجمع الشمر البحري
 في الريح الباردة السافية ، وخيل إليّ أنى كنت أتحدث إلى مخلوق أشبه
 بأشباح الموتى أو بالأرواح ، ولا أستطيع وصفه ، شأنه شأن بعض الآثار
 الجوية في الأرض والماء والسماء ، يحسها من يصور منظرا طبيعيا ولكنه
 لا يستطيع إظهارها في صورته ، فهو لذلك يتجاهلها ، ويجعل أصابعه في
 أذنيه لكيلا يستمع إلى ذلك الصوت الذي يسخر منه ومن تقليده السخيف ؛
 وشأن الكاتب في هذه الحال شأن المصور ، كل ما يستطيع أن ينقله إلى
 قرائه في مثل هذه الحادثة التي وصفناها هو أن يحاول تصوير الأحاسيس
 التي يثيرها المنظر في نفسه .

ومن الناس من صرنت أعينهم ، على غير علم منهم ، على أن يتأملوا
 كل وجه يرونه ، وأن يتبينوا في أكثر هذه الوجوه شيئا مهما يكن قليلا
 مما تكنه صدور أصحابها . أولئك الناس لا يستطيعون أن يسيروا في طريقهم
 دون أن يعترضهم من حين إلى حين وجه يشعرهم بما أصاب صاحبه من
 مأس ، أو بما ينطوى عليه قلبه من سر دفين ، ويسترعى نظره وجه ثان

وثالث ، ولكن ما يشيره كل وجه من المشاعر يزول منها على الفور .
على أنه يحدث من حين إلى حين بعد فترات من الزمن قد تطول إلى
خمس سنين أن يرى الواحد منهم وجهها لا ينفك منظره يعاوده ، ولا يزول
أثره الواضح من نفسه طوال الخمس السنين ، وكان وجهها كهذا الوجه وعينين
كهاتين العينين ما رأيت حين شاهدت جامعة الشمر البحرى فى مساء ذلك
اليوم ، ولكن ما تنطوى عليه من سر لا يزال خفيا لم أتبينه حتى هذه
الساعة .

الصمت

بقلم

ربرت لند Robert Lynd

١٨٧٩ —

[المحرر الأدبي لجريدة The News Chronicle ، ولد في بلفست بأيرلندة ، وكان أبوه من رجال الدين ، وتعلم في جامعتها ، وتخرج فيها عام ١٨٩٠ . وبعد تخرجه اشتغل بالتحرير في الصحف ، ونشر عدة كتب عن إنجلترا وأيرلندة وفرنسا ، ولكن شهرته تعتمد على مقالاته الأدبية . وهو كاتب كثير الإنتاج ، نشر حتى الآن مجموعات كثيرة من المقالات والقصص ، منها واحدة باسم « لوفتح الألمان إنجلترا ومقالات أخرى » نشرها في عام ١٩١٧ ، وزوجته هي الأخرى شاعرة وكاتبة مسرحيات وروايات .]

٢٦

الصمت مخالف للطبيعة البشرية ؛ وآية ذلك أن الإنسان يبدأ حياته بصرخة ويختتمها بسكينة ، وفيما بين بدايتها وختامها تراه يبذل كل ما يستطيع ملء العالم بالأصوات ؛ وقل أن يوجد شيء في هذا الكون يرهبه الإنسان أكثر مما يرهب الصمت ، وليس حديثه لنفسه في معظم الأحوال إلا جهدا عنيفا يبذله لمنع الصمت الرهيب . وإذا ما اجتمع بزميل له من بني جنسه ، وتخلل حديثه معه فترات من الصمت ، عد نفسه شخصا حقير الشأن عاجزا

عن الحديث ، وحسد أكثر الناس ثثرة وأفرغهم رؤوسا . وهو يعرف أن تسعة أعشار ما يتحدث به الناس ليس فيه من المعاني أكثر مما في طنين الذباب ، ولكنه يحرص على أن يشترك في هذا الطنين ، وأن يثبت لمن حوله أنه إنسان لا دمية . وليس الغرض من الحديث في أغلب الأحيان هو تبادل الأفكار ، بل مواصلة الطنين . ولست أنكر أن الطنين مختلف الأنواع وأن منه ما هو أشد مضايقة للإنسان من أزيز الناموس المستمر ، لكن خيرا للإنسان إذا وجد في حفلة أن يكون ناموسة ولا يكون إنسانا أبكم . ومن حسن الحظ أن كثيرا من الطنين لطيف لا تمججه الأذن ، وأن منه ما يستطيعه العقل نفسه ، ولهذا كان أحق الناس من لا يشترك في الطنين مع جيرانه إلا إذا خطرت له فكرة رائعة أو سديدة . ويخيل إلى أن الذين يظنون أن حالة الجو من الموضوعات التافهة التي لا يصح أن يبدأ بها الحديث ، قوم يجهلون السبب الذي من أجله يرغب بنو الإنسان في الكلام . إن الذين يتحدثون لأنهم يريدون أن يعرفوا أو يقولوا شيئا جديدا قلة لا يعتقد بها . أما الباقون فمنهم من لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالطنين في آذان غيرهم وإن لم يكن لديهم ما يظنون به أكثر من قولهم إنهم شاهدوا مسرحيتين أو ثلاثا أو إنهم تعشوا في مطعم ، وتراهم في آخر السهرة التي تحدثوا فيها طويلا عن لا شيء يفخرون بأنهم كانوا أبرع الناس حديثا . ولقد رأيت شابا يستأثر دون غيره بالحديث في حضرة أمير نصف ساعة كاملة ليلقي علينا خطابا طويلا عن نفسه ، ولكنه خطاب خال من كل معنى ، ولم يكن فينا من كان راغبا في سماعه إلا هو نفسه ، ومع ذلك فقد كان في أثناءه منشرجا نخورا كأنه ملك متوج .

وكثيرون من الناس لا يستمتعون بالحديث في مجتمع إلا إذا كانوا أكثر من فيه لغطا ، وذلك في نظري عيب كبير ، ولكن منشأ كراهتنا الطبيعية للصمت ، فقد كان هذا الشاب الذى ذكرته توايكره الصمت إلى حد لم يجرؤ معه على أن يمسك لسانه لئلا يصبح الصمت عاما ، وإذا لم يكن قد أفلح فى أن يكون محدثا بارعا فما ذلك إلا لأنه لم يدرك أن الحديث لا يكفى فيه أن يكون طينينا فحسب ، بل لا بد أن يكون طينينا تشترك فيه عواطف المتحدثين جميعا . ومن أجل هذا كانت حالة الجو من الموضوعات الصالحة للحديث ، فهو يجمع الناس من فورهم حول تجارب يشتركون فيها جميعا ويمكنهم من أن يطنوا طينينا متحد النغمة . ومتى بدأ هذا الانسجام بينهم أمكنهم أن يتقدموا مراحل أخرى نحو موضوعات جديدة تلائم عواطفهم ، ثم تتتابع النغمات حتى يصبح حديثهم كله نغمات منسجمة تطرب لها الأذن ويرضاها العقل . وسرّ الحديث الطيب أن يكشف المتحدثون نغمات يميلون إليها جميعا . وإلى هذا السر نفسه يرجع السبب فى أن الحديث بين ثلاثة كثيرا ما يفشل ؛ ذلك أن اثنين منهم يجدان موضوعا مشتركا فيندفعان فى التحدث فيه وينسيان أن معهما رفيقا قد لا يجد فيما يتحدثان فيه لذة . فقد يكون منهم اثنان تخرجا فى كلية واحدة من جامعة واحدة ، فيأخذان فى سرد ما مر بهما من تجارب ، فيقول أحدهما : « هل تذكر فلانا ؟ وهل تذكر اليوم الذى . . . ؟ وهل تذكر الليلة التى سرقت فيها قبعة الشرطى وهو نائم ؟ ولقد كان أظرف شئ ما فعله فى ذلك اليوم الذى ألقى فيه صحيفة طعامه من النافذة وكاد يشج رأس الشيخ الهرم . . (معلم اللغة اللاتينية) والذكريات القديمة خير موضوع يتحدث فيه اثنان ، فهى تثير حماسة

المتحدثين ، لأنها تتصل بتجاربهما اتصالاً وثيقاً ؛ لكن عيها أن الشخص الثالث يشعر في كثير من الأحيان أنه غريب عن الحديث ، لأن الأسماء والحوادث ، وهي الرموز الجبرية لعواطف المتحدثين ، لا تحمل معنى إلى ذهنه ولا ترتبط فيه بشيء ، فهو لا يعرف شيئاً عن أسماء الأشخاص الذين يدور حولهم الحديث . وقد يضحك ضحكا آلياً كما يضحك غيره ممن تطربهم الذكريات ولكنه ضحك أجوف متصنع . ومن أجل هذا كان كل حديث من هذا النوع حديثاً غير مستحب ، لأنه يفرض على الشخص الثالث ذلك السكون الاضطرابي الذي يعذبه تعذيباً شديداً . وقد يكون الحديث بين ثلاثة حديثاً طيباً إذا فرض الثالث على نفسه الصمت باختياره ، أما إذا كان الصمت مفروضاً عليه من غيره فإن الحديث يصبح بغضاً ثقيلاً .

ونحن نحب الضجيج أكثر مما نعرف حتى ولو لم يكن معنا رفيق من بني الإنسان ؛ والذي يظن حين ينتقل من المدينة إلى الريف أنه يفعل ذلك ليستبدل السكون بالضجيج يخادع في الواقع نفسه ؛ فنحن لا نذهب إلى الريف لنفر من الصخب والأصوات ، بل نذهب إليه لنبحث فيه عن صخب من نوع غير الذي ألفناه . اجلس في حديقة الدار في الريف في يوم من شهر مايو تدرك أن الأصوات لا تنقطع فيها أبداً ، فالطيور فيها لا تقل ثرثرة عن النساء ، والنحل لا يقل عداء للصمت عن الأطفال ، والريح تحمل إلى أذنيك زقاء الديكة ، وتقنقة الدجاج ، وسقسقة العصافير ، ونباح الكلاب ، وثرغاء الغنم ، وكركرة العجلات . ويمر عليك اليوم كله والأصوات تتوالى بعضها في إثر بعض . وإذا جن الليل وسكنت أصوات الحيوان والطيور شعرت برهبة ووحشة . وأهم أسباب الخوف من الظلام هو

الخوف من الصمت ، ذلك أن من أصعب الأشياء على الإنسان أن يعتقد أن الكون قد خلا من ساكنيه جميعا . وإذا لم يمتلئ العالم بأصوات الناس والحيوان بدأ الإنسان يظن — أو على الأقل بدأ الكثيرون من الناس يظنون — أن ثمة شيئا صامتا خفيا رهيبا ؛ فالأصوات نوع من الرقعة والألفة حتى لأذكر أنني وأنا طفل كنت آنس لدقات الساعة في حجرة نومي . وكان يحلو لي أن أفتح نافذة هذه الحجرة وأستمع إلى صوت عصفور يسقسق وهو مقبل من ناحية المرحى في الظلام الدامس . ولست أنكر أن من الأصوات ما يقذف الرعب في القلوب في أثناء الليل ، ولكن منشأ ما فيها من الرعب هو ما يكتنفها وما تنفذ فيه من الصمت الرهيب . وأنت تفرع أحيانا إذا كنت عائدا إلى منزلك ليلا وطرق أذنك صوت بقرة تتنفس وراء سور حظيرة ، ولكن الذي يفزعك في هذه الحال هو سكون الليل لا صوت أنفاس البقرة . ولو أن الطبيعة وجدت وسيلة يمكنها من أن تحتفظ بجميع أصواتها وجلبتها في أثناء الليل ، لفقد الظلام أكثر من نصف ما فيه من رعب .

ذلك أن السكون التام يلقي في قلوبنا الرعب حتى في وضوح النهار ؛ فلو أنك تصورت نفسك آخر من بقى على ظهر الأرض من الكائنات الحية غير النبات ، وأيقنت أنك مخلد وآمن من الخطر أبد الدهر ، لشعرت مع ذلك بالرعب الشديد من العالم الذي انعدمت منه الأصوات إلا وقع أقدامك وصوتك أنت نفسك إذا أوتيت من الشجاعة ما يكفي لإخراج الصوت . أما إذا كان معك على ظهر الأرض طيور وكلاب وقطط وضافدع وبقر وغنم فقد يكون في وسعك أن تصبر على وحدتك وتطمئن إليها

اطمئنان الفلاسفة . ولست أكذب القارىء أننى أنا نفسى لا أحب أن أحيأ هذه الحياة ، ولكن ما أعانيه منها أقل مما أعانيه لو كنت آخر مخلوق على ظهر أرض صامتة ساكنة ليس فيها بحر مضطرب تتلاطم أمواجه بصخور الشاطئ . إن الناس يتحدثون عن سكون القبر ، وما من شك فى أن العالم إذا خلا من الأصوات كان هو والقبر سواء . ومن يعيش على ظهر الأرض التى انعدمت فيها الحياة يكن كمن دفن فى القبر حيا . ولست أشك فى أن الكثرة الغالبة منا لا تتردد فى الانتحار لتخلص من هذا النوع من الحياة .

على أن هذا لا يعنى أننا لا نستمتع برهبة الصمت بحال من الأحوال . إن الذين يتسلقون الجبال العالية المكلفة بالثلوج الدائمة ، والذين يكشفون آثار المدن القديمة التى خلت من أهلها ، ليثيرون مشاعرنا بما يصفون من سكون هذه الربوع الخالية والآثار الدارسة ، كأن هذا السكون الصامت يعدل بالنسبة إليهم الدخول فى عالم جديد . وما من شك فى أن هذا النوع من السكون يبعث فى النفس أحاسيس لم نألفها من قبل . لقد وقف الشاعر الكبير ورد سورث على جسر وستمستى فى ظلمة الفجر وسكونه ، ونظر من موقفه هذا إلى مدينة لندن فامتلاً قلبه روعة ، وجاشت فى صدره مشاعر لم يحس بمثلها قط ، وهو ينظر إلى المدينة فى وضوح النهار^(١) . وسبب ذلك أننا فى سكون الليل وصمته نحس بأننا نوشك أن ندرك سرا خفيا ، فاتنا أن ندركه فى صخب الحياة العادية . وهذا فى رأى منشأ استيائنا من

(١) هذا المنظر هو الذى أوحى إلى وردسورث بأغنيته المشهورة « ليس على

الأرض أجل من هذا المنظر ... الخ » (المعرب)

الذين يحدثون الضجيج في دور العبادة ؛ ذلك أن مالهذه الدور من أثر عظيم في النفوس إنما ينشأ من سكونها الزهيب ؛ وليست الأوهام والخرافات هي التي تتطلب إلينا أن نلزم فيها الصمت أو السكون أو خفض الصوت إلى حد الهمس إذا كان لابد لنا من الحديث ، بل إننا ليس في مقدورنا أن نرى الكنيسة أو المسجد بحيث يرسم جماله في الخيال وينطبع في الذاكرة إلا إذا خشعت فيه الأصوات وخلا حتى من الهمس .

ولقد أدركت بعض الطوائف الدينية قيمة الصمت ؛ فالتصوفة يقولون إننا ندرك أسرار الحياة بالصمت لا بالكلام ، وما من شك في أن كثرة الجلبة لا تزيد من حكمة بنى الإنسان . وقد يسخر البعض من العادة التي جرت عليها بعض الأمم في الأيام الأخيرة ، عادة الصمت دقيقتين يوم عيد الهدنة ، ويظنون أن ليس في هذا الصمت نفع ، ولكنني أؤكد للقارىء أنني كنت في شارع من شوارع لندن حين وقفت حركة المرور ، وساد السكون ، ووقف كل إنسان جامداً في مكانه لا ينطق ولا يتحرك ، فشعرت كما شعر غيرى من ملايين الخلق برهبة الموقف وجلاله ، ولاح لي أن لندن مدينة السيارات والمركبات ، ومدينة المصانع والمتاجر ، قد لفها سر خفي عجيب أقوى أثراً في الخيال من ضجيج الأبواق ووقع الأقدام . نعم إنني رأيت رجلاً طاعناً في السن يتحرك في وسط هذا السكون العميق الشامل . ولست أدري هل أدرك هذا الرجل أو لم يدرك أن الناس من رجال ونساء قد استحالوا كلهم فجأة تماثيل من حجر ، وأن حركة المدينة كلها قد سكنت أو انعدمت ، وأن الأصوات قد خشعت فلم يكن أهلها يسمعون إلا صوت حدائه وهو يتضاءل ويتضاءل كلما بعد عن المكان

الذى كنا نقف فيه . ولقد خيل إلى أن هذا الصوت لم يقطع الصمت ويضعفه بل زاده قوة على قوته ؛ ولم أر واحداً من الناس يدير وجهه نحوه لينظر إليه . ولعله لم يسمع قط بيوم الهدنة أو لعله كان أسعد الناس حظاً فلم يسمع شيئاً عن الحرب ذاتها . وسواء كان هذا أو لم يكن فقد كان الرجل نموذجاً صادقاً لمن لا يطيقون السكون من بنى الإنسان . نعم إن البقية الباقية منا يستطيعون أن يبقوا صامتين دقيقتين من الزمان ، ولكن إذا ما أطلق المدفع إيداناً بانقضائهما عدنا مسرعين إلى ما كنا فيه من هرج ومرج ، وما ألفناه في الحياة من صخب وضجيج .

حفلة فى قرية

بقلم

ألن ألكسندر ملن Allan Alexander Milne

١٨٨٢

[من كتاب هذا الجيل ، ولد فى شهر يناير من عام ١٨٨٢ ، وتخرج فى جامعة كمبردج واشتغل بالصحافة منذ عام ١٩٠٣ ، وظل يكتب فى جريدة Punch تسع سنين ، وأصبح منذ عام ١٩٠٨ من كبار كتاب الصحف . وقد كتب عدة قصائد وروايات ومسرحيات ومقالات . ومن أحسن رواياته « حينما كنا صغارا جدا » When We Were Very Young ، « السلم الشريف » Peace With Honour سنة ١٩٣٤ ، « وراء خط القتال » Behind the Lines سنة ١٩٤٠] .

٢٧

قرينتنا من أصغر القرى فى هذه البلاد ، ولكن عدد من أرسلت من أبنائها إلى ميدان القتال فى الحرب الماضية بلغ قبل نهايتها خمسة عشر شابا . وكان من حسن حظها — كما قال قسيسها — أن أحداً من أبنائها لم يقتل فى هذا الصراع ، بل أن أحداً منهم لم يصب بأذى قط إذا استثنينا شارلى رد الذى جرح على أثر سقوطه عن ظهر جواد . ومن أجل هذا كان سرورنا بانتهاء الحرب لا يعدله سرور قرية أخرى فى البلاد كلها .

ولما اجتمعنا لنحتفل بالنصر اتجهت أفكارنا بطبيعة الحال نحو أبطالنا الذين عادوا من ميادين القتال ، واقترحت الآنسة تريفر العازفة على البيان في أيام الآحاد أن نخلد ذكرى هؤلاء الأبطال بإنشاء فوارة من رخام يستقى منها المارة وتنقش عليها بعض العبارات المناسبة للمقام كالعبارة الآتية : « أنشئت هذه الفوارة اعترافاً ببطولة أبناء القرية الشجعان الذين وثبوا إلى ميدان القتال تلبية لنداء الوطن » ، ثم تكتب بعدها أسماء هؤلاء الشبان . لكن إيبورى إسكاف القرية اعترض على الصيغة المقترحة قائلاً : إن كلمة « وثب » لا تصلح للتعبير عن عمل الشخص الذى لم يرتد ثياب الجندية إلا فى عام ١٩١٨ بعد أن قبض عليه رجال الشرطة . وأثارت هذه الملاحظة حماسة الحاضرين ، ورأى قسيس القرية من واجبه أن يؤكد للسيد باتيس أحد الزراع فيها أنه لا يشك فى أن ابنه الشاب رُبرت لم يكن يستطيع مغادرة القرية قبل ذلك التاريخ ، وأنه لا يشك فى أن صديقه الإسكاف لم يرد أن يسىء إليه بعبارته التى جاءت من غير قصد وفى غير أوانها — إذا سمح له بأن يعبر عنها هذا التعبير . وأضاف إلى ذلك أنه شخصياً يقترح أن تستبدل بكلمة « وثبوا » عبارة أخرى مثل « لبوا بشهامة » لأن هذه العبارة الثانية أكثر انسجاماً مع فكرة الآنسة تريفر ، وأنه يعرض رأيه هذا على المجتمعين راجياً أن يعدلوا النقش حسب الصورة المقترحة .

وقاطعه المستر كلينتن بدال القرية وبرزازها قائلاً إنهم يتعجلون الأمور ؛ ثم أضاف إلى ذلك « ولنفرض أنكم وافقتم على صنع فوارة من رخام فمن الذى يصنعها لكم ؟ هل يصنعها أهل القرية أنفسهم أو هل تأتون بالنحاتين والمهندسين وأمثالهم من لندن ؟ وإذا جئتم بهم منها ... » ونظرت

الآنسة تريفر إلى القسيس نظرة أذن لها على أثرها بالكلام فقالت إنها قد أسرّت إلى القسيس قبل هذه اللحظة أن لها ابن أخ في لندن يدرس الفنون الجميلة وأنه يسره من غير شك أن يطلب إلى أحد كبار الفنانين أن يضع لهم تصميم فوارة جميلة حقا .

وعندئذ وقف إسكاف القرية وقال : إنه يُحب أن يسألهم قبل كل شيء سؤالين لا أكثر . فأما أولهما فهو « بأى ترتيب تنقش أسماء المحاربين الأبطال ؟ » وأجابه القسيس بقوله : « إنه وإن لم يفكر في هذا الموضوع من قبل يظن أن ترتيب الأسماء حسب الحروف الهجائية هو خير طريقة لكتابتها » . وأعجب الجميع بهذا الرأي السديد ، وكان أشدهم إعجابا به كبير ملاك القرية الذى لم يكن قد بدأ يتدخل في النقاش بعد . وواصل الإسكاف حديثه قائلا : « ذلك ما كان يجول بخاطري عندما توجهت بالسؤال إليكم . أما السؤال الثانى فهو : وماذا يخرج من الفوارة ؟ » وأجابه القسيس مندهشا بعض الدهشة : « إن المفروض أن الفوارة سيخرج منها ماء » . وعندئذ جلس الإسكاف ولم يرد على القسيس بكلمة .

وجدير بى أن ألاحظ أن قريننا بطيئة في كل شيء ، وأن لفظ « الوثوب » لم يكن اللفظ الذى ينطبق على حركاتنا العقلية والجسمية فى أى وقت من الأوقات . ومن أجل هذا لم يكن غريبا ألا يدرك باتيس فى الحال أن اسم ولده سيكون من أوائل الأسماء التى ستكتب على الفوارة لأنه يبدأ بحرف الباء . فلما أدرك ذلك تذكر أن الإسكاف لم يرد على أقوال القسيس بشيء ، وأن ذلك راجع إلى ما كان يجول بخاطره حين سمع أن الأسماء ستكتب بترتيب الحروف الهجائية ؛ وعندئذ ثارت ثأرتة وقال

مغضبا : « كنت أحب أن يصرح بعض الناس بما في ضمائرهم حتى يعرف الحاضرون في هذا المجتمع بعضهم بعضا . » وأجاب الإسكاف بقوله : « إن في وسع الإنسان عادة أن يكشف عما في ضمائر بعض الناس ثم لا يخطئ كثيرا في هذا » . وفي هذه اللحظة قام كبير ملاك القرية فضاعت أقوال الإسكاف وسط هتاف الحاضرين وتصفيقهم .

وبدأ خطابه بقوله : « إنه ... لم ... يكن ... يريد ... أن ... يقول شيئا . ولكنه فكر أخيرا ... في أن يقول كلمة ... في موضوع ... موضوع يعرفونه كلهم ... وهو موضوع ... المال ... ، ذلك أنهم إذا لم يحددوا ... مركزهم ... المالى ... بالضبط ... فإن من الواضح أن ... إن من الواضح ... إن من الواضح جدا ... ، نعم إن المسألة مسألة مركزهم المالى » . ثم جلس .

وقال القسيس إن عبقرية السير جون وسرعة خاطره قد أنجبتهم هذه المرة كما أنجبتهم كثيرا من قبل من أخطار العجلة والتهور ؛ فقد كانوا في الحقيقة يسيرون بغير روية . نعم إن صديقتهم العظيمة الآنسة تريفر قد عرضت عليهم اقتراحا لا يخطئ إذا قال إنه اقتراح فذ جميل ، ولكن الذى يؤسف له حقا أن المال في هذه الأيام السود عنصر لا يمكن إغفاله . ثم سأل الحاضرين كم من المال عندهم ؟

ونظر المجتمعون إلى السير جون وهم جميعا صامتون ، ولكن السير جون لم ينبس ببنت شفة . وقام الشاب شارلى رد من المكان الذى كان مخصصا في الاجتماع لشبان القرية وقال إنه يريد أن يقول كلمة صغيرة إذا أذن له المجتمعون . ورد عليه القسيس قائلا إن من حق الشبان أن يتكلموا ، فقال

شارلى إنه يريد أولا أن يعبر عن احترامه الشديد للآنسة تريفر ، وهى سيدة محترمة كثيرا ما أرسلت له الهدايا فى الميدان هو وسائر شبان القرية ، وأن يقول بعد ذلك إنه إذا كان بعض الشبان قد انضم إلى الجيش قبل غيرهم فإنهم كلهم لم يدخروا وسعا فى أداء واجبهم ، كما أداه الذين بقوا منهم فى بيوتهم ، وإنه يسره كما يسر رفقائه أن يعودوا ليروا أهل القرية كلهم بخير سواء عليهم أأقاموا لهم نصبا أم لم يقيموا ، وإن المستر باتيس الفلاح والمستر بيورى الإسكاف فى نظرهم سواء ، وهذا كل ما يريد أن يقوله ليعبر به عن رأيه ورأى الشبان ، وهو يرجو ألا يكون فيه ما يسىء إلى أحد من الحاضرين .

ولما هدأت عاصفة التصفيق التى أعقبت هذا الكلام قام المستر كليتن وقال إنه يكرر مقاله من قبل ، وهو أنهم قد تسرعوا فى الأمر أكثر مما يجب . وسأل : هل هم حقيقة يريدون إقامة فوارة ؟ ومن هم الذين يريدون إقامتها ؟ . وقال القسيس : « إن الفوارة تكون أثرا جميلا يذكر أطفالهم بالأوقات العصيبة التى مرت بالبلاد فى هذه السنين » . وسأل الإسكاف : « هل يريد ابن المستر باتيس أن يقام فى القرية تذكارا لـ . . . ؟ » فرد عليه القسيس قائلا ألا داعى لذكر الأسماء فالموضوع موضوع عام لا موضوع خاص .

وأخيرا قام صاحب حانة القرية وقال : « إننا نحتفل هنا بعودة السلام ، ولكن هل فيكم من يفهم معنى لفظ الاحتفال ؟ الاحتفال معناه أننا نحتفل ، ومعنى ذلك أن نجلس منشرفين مسرورين كما يليق بالإنجليز ، وأن نحتفل احتفال الإنجليز ، وعليكم أولا أن تعرفوا كم من المال لديكم كما قال السيرجون بالضبط . ذلك هو الحق الذى لا مرية فيه ، وإذا شئتم بعد

ذلك أن تركوا الأمر لى « أنا » كان من أسباب نفري أن أودى لكم ما أستطيع أدائه ، وأنتم تعرفون حق المعرفة ما أستطيع . فإذا قمتم بواجبكم نحوى قت أنا بواجبى نحوكم ؛ وإذا عرفت كم من المال لديكم ، وكم منكم يريدون أن يجلسوا أو يحتفلوا بدأت عملى على الفور ، وهذا كل ما أريد أن أقوله عن الاحتفال . »

واشدت حماسة المجتمعين حين سمعوا اقتراح صاحب الحانة ، ولكن القسيس نظر إليه شزرا ، وهمس فى أذن كبير ملاك القرية ، وهز ذلك الكبير كتفيه ونطق ببضع كلمات لم يسمعها أحد ، قام على أثرها القسيس واقفا وقال بأعلى صوته : « إنه يسرهم من غير شك — يسرهم وإن لم يدهشهم — أن يسمعوا أن كبير الملاك قد قرر ، كرما منه وحبا لأهل القرية ، أن يفتح لهم أبواب بسايننه وأراضى صيده فى ذكرى يوم السلام ، وأن يأخذ على عاتقه هو واجب الاحتفاء بهم ، ومن أجل هذا فهو — أى القسيس — يطلب إليهم بأن يهتفوا بحياة سيرجون ثلاثا . »

وردد الجميع الهتاف على الفور وانفض الاحتفال .

الزكام

بقلم

رجنالد استيمورت هوير Reginald Stewart Hooper

١٨٨٩

درس القانون وتخرج في جامعة أكسفورد واشتغل بضع سنين بتدريس القانون ، ثم انتقل إلى الصحافة وأصبح في عام ١٩٣١ رئيساً لتحرير جريدة The Bystander (المتفرج) ، وانتقل منها في عام ١٩٤٠ إلى جريدة التاتلر The Tattler (المحدث) وهي صحيفة حديثة العهد تسمت باسم صحيفة استيل القديمة .

٢٨

هأنذا مصاب بالزكام أو بعبارة أصح ها قد بدأت إصابتي بالزكام . لقد جاء في هذا العام متأخراً عن مواعده ، فلم يصبني إلا منذ ثلاثة أيام ، مع أنه يصيبني عادة قبيل هذا الوقت في فصل الشتاء ويلازمني بضعة أشهر . وكان أمره في هذا العام أمراً عجيباً ، فقد استهل شهر نوفمبر وطلع على العالم المزكوم كله ، ومع ذلك فلم يكن زكامي قد جاءني ليستقبل هذا اليوم معي . وكان من عادته أن يجيئنا في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر لا يتأخر عنه أبداً ، كأن الاثنين على موعد ؛ فلما تأخر في هذه السنة دهشت لذلك بطبيعة الحال ، ولم أدر ما أصابه فأخره عن مواعده . وما من شك في أن

خطأ قد وقع في ناحية ما ، وقد يكون الذنب ذنب تيار الخايج ، وقد يكون ذنب نظرية النسبية ، وقد يكون ذنبهما معا . وفكرت في أن أطلب الطبيب لأسأله عما يشير على به ، والأطباء بطبيعة الحال أعلم الناس بما في الإخلال بنظم الطبيعة من الخطر الشديد ، ولا شك في أن طبيبي كان يزعمه هذا الإصرار والعناد . لقد وقعت في البلاد إصابات بالزكام كثيرة ، وظلت أنا في هذا اليوم من السنة سليما منها ، لم أضع قط منديلا على أنفي ، في حين أنه كان في مثل هذا الوقت من العام الماضي أحمر اللون ، موسيق الصوت إلى حد جعل أصدقائي يشيرون على " بأن أعزف لهم إحدى القطع الموسيقية على أوتاره . وفي السنة التي قبلها ضربت الرقم القياسي في الأسرة كلها في العطس ، وقضيت عيد الميلاد في الفراش ، وأُخرجت من إحدى الحفلات المسائية لكثرة السعال . وفصول الشتاء السابقة تشهد كلها بما أصابني من الزكام وبمقدار صبرى عليه . ولما كنت أنا أسير العادة خاضعا لحكمها على الدوام ، فإن في وسع القارىء أن يدرك ما استولى على من الفرع حين تأخر الزكام عن مواعده ؛ ولو أن أسبوعا آخر قد مضى دون أن أعطس لكان فيه الطامة الكبرى .

وقررت أخيرا ألا أتحدث إلى الطبيب ، وأن أحتفظ لنفسى بمتاعبي ، وألا يعرف أحد أن بسماقي الظاهرة تخفى وراءها سرا خفيا هو الخوف من ألا أكون كما أشتهى ، وأحسست أن حالتى شبيهة بحال أولئك اليونان الأقدمين الذين جمعوا من الثروة ما حسدتهم عليه الآلهة فأرسلوا عليهم الصواعق لتطهرهم من زهوهم وغرورهم . وكان ذلك علاجا شديدا ولكنه كان على الدوام علاجا ناجحا ؛ وماذا لو حل بي شيء مثل هذا ، فيقبل

شهر ديسمبر من غير أن أعطس عطسة واحدة ، وتم حفلات عيد الميلاد خالية من آثار القشعريرة ، ثم ينقضى يناير وفبراير وعيناى جافتان من الدمع ورئتاى نظيفتان من البلغم . ويظل صدرى سليما من رائحة دهن الإوز الخالدة الأثر ، وحلقى لم تتردد فيه قرقرة الماء المعطر ، ثم تنسى أمعائى لذة ما كان يدخل فيها من شراب القرفة ، وما كانت تعانيه من وخز السكينين ؛ ويقبل شهر مارس كالأسد الزابض فيجدنى أرتجف فى انتظار البرد كما يرتجف الحمل فى انتظار سكين القصاب ، ثم تعصف العاصفة وتهب الرياح الشرقية محملة بملايين الجراثيم تتغلغل فى جسمى ، حتى إذا جاء شهر إبريل لزمت فراشى مصابا بأوجاع المفاصل ، فيطوف بي العلماء الإخصائيون ، والأطباء النطاسيون ، والمرضات البارعات ، وفى أيديهم زجاجات الماء الحار ، والأدهنة والأصباغ ، والعقاقير وما إليها من أدوات حجرة المريض ، ثم يوشك شهر إبريل على الانتهاء ويحل الربيع ولا أشهد حفلات أعياده ، فإذا جاءنى الرفاق فى الصباح الباكر لم أرد عليهم الجواب ، وأسمع الطيور تشدو أغانى الربيع الأولى ، وتنشر أجنحتها لتتلقى ضياء الشمس وحرارتها وتبنى أوكارها لتضع فيها بيضها وأظل أنا . . . »

فإذا تصور القارىء بعدئذ أننى نجوت من هذا وأصبت بالزكام فعلا ، بدا له أن الشواهد الأولى على قرب نجاتى من هذه الحال كانت بشائر بركة ورحمة . والحق أننى قبل أن أشعر بأعراض الزكام كنت قد بدأت أتضايق وأتململ ، إذ أصيب به كل أصدقائى ولم يبق إلا أنا ، وكانوا إذا سألوني « كيف حال زكامك ؟ » أجبتهم على الرغم منى بصوت خافت قلق : « لا ، لم أصب به » فكانوا يقولون : « ألم تصب بالزكام بعد ؟ هذا أمر غريب !

لقد أصيب به كل الناس . إنه يلازمنا منذ أيام ولا نستطيع التخلص منه .
 إن الزكام الذى يصيب الناس فى هذا العام زكام عجيب . . . لا يشبه فى شيء
 زكام العام الماضى . . . » إلى غير هذا من الأقوال . وكنت أقول فى نفسى
 إن زكامى لن يحل بى حتى يكون الناس كلهم قد تخلصوا من زكامهم ،
 ومضت عليهم بعد تخلصهم منه عدة أسابيع ، ولن أجد أحدا يقارن أعراض
 زكامه بأعراض زكامى ، ولن يعنى أحد بى أو يعطف على . . . وسيقولون
 دون شك : « عجيب أن يصاب إنسان بالزكام الآن ! لقد تخلصنا من زكامنا
 من زمن طويل » . وما من شك فى أن هؤلاء القساة الغلاظ القلوب لن
 يعدونى زميلا لهم يعطفون عليه ويعبرونه الأدوية والمناديل .

وإذا فلم يكن ثمة عجب فى أن أححو منذ ثلاثة أيام وقد انمحي من عقلى
 هم ثقيل (تحول عنه إلى صدرى) ، جلست على سريرى وأخرجت مافى حلقى
 ورفعت صوتى فرحاً مغتبطاً شاكراً وقلت : « هأنذا قد أقبل على البرد
 فى رأسى وفى أنفى وفى صدرى » . ولم يأت المساء حتى كان قد استحوز على
 جميع جسمى ، وفى صليحة اليوم التالى خرجت إذ ظننت أنه زال ،
 وأيقنت أنى أسأت إليه من غير قصد وبطريقة ما فى الليلة الماضية . وسواء
 كان هذا أو لم يكن فإنى افتقدته فى الصباح فلم أجده ، ولم يكده يحين موعد
 الإفطار حتى لم يبق له أثر ، وبعد الغداء أخذت أفتق أثره بأن خرجت فى
 العراء من غير معطف ، وفى موعد الشاى أحسست به يعود بخطى بطيئة
 ولكنها أكيدة ، ولما جن الليل كنا قد التقينا مرة أخرى ، وزال كل
 ما كان بيننا من جفوة . على أنى مرت بى بالأمس لحظات كنت فيها

قلقا مضطرب البال . أما اليوم فلا شك في أنه ظفر بي أو بعبارة أصح ظفرت به تمام الظفر .

وسأعود هذه الليلة إلى ما تعودته من قبل حتى لسكأنه من المواسم الدينية . فسأكل في العشاء أكثر ما أستطيع أكله ، وسأجلس بالقرب من النار على الكرسي ذى المتكأ ، وأضع في الموقد أكثر ما يسعه من الفحم ، ثم أغمض عيني وأسلم نفسي لسبات عميق كثير الغطيط . وسأكون في هذه الليلة مُترملاً مدتيراً كالشيخ الطاعن في السن ، أو بعبارة أوضح سأكون فتى مصاباً يبرد شديد ، هو برد الشتاء الذى سيلازمنى حتى يحل العام الجديد . وسوف أودعه قبيل عيد الفصح وداع الأسف عليه ، لا الغاضب منه ، لأنه زميل قديم عرفت طباعه وعرف طباعى . نعم إننا نفرق في فترات خلال العام ، فيتركنى أحيانا أسبوعاً أو أسبوعين ، ولكنه يعود دائماً ويجدنى متاهباً لتسوية ماشجر بيننا من خلاف ، وإزالة جميع آثار الماضى .

وفي هذه الليلة ستمثل الرواية القصيرة القديمة التى نستقبل بها عادة هذا الصديق المبذر ؛ فسند له الشاى والزنجبيل والسكر والماء ؛ أما الليمون فلست واثقا من وجوده . وسأرتشف هذا الرحيق وأنا فى الفراش ، ينتابنى الصداع فى رأسى والألم فى حلقى . وسأبتلع مع آخر جرعة منه قرصين من الإسبيرين ، وأنام بعد ذلك نوما عميقا . وإذ كنت أكثر الناس عقلا وأعظمهم صبرا ، فلن أخدع نفسى فأظن أنى سأبرأ من الزكام بمثل هذه الأشياء . نعم إن بعض الناس ، وهم قليلون ، يستطيعون أن يتقوا الزكام بعدم الاهتمام بملابس الشتاء وارتداء الملابس الداخلية الخفيفة على الدوام ،

لكن الذى يحاول الشفاء من البرد بعد أن يصاب به إنما يحاول المستحيل ،
ولست أنا هذا الرجل . إن الزكام يصيبني فاشرب الشراب الدفء ، وأبتلع
أقراص الدواء ، وأعانق زجاجات الماء الحار ، ولكنى لا أبلغ من الحق
مبلغا يخيّل إلىّ معه أننى سأشفى منه بهذه الوسائل ، بل أفعل هذا وأنا موقن
أن البرد لن يزول قبل أن يمضى الزمن الذى يريده هو . على أننى أعلم أيضا
أن من واجبنا أن نحصر على العادات القديمة ، وأن نجعلها ونقدرها حق
قدرها ، ولن يكون ذلك التقدير بالتخلي عنها بل بالاستمساك بها . ذلك
ما يتوقعه منى زكامى ، وأنا موقن أنى لن تتحسن حالى فى الصباح . أما إذا
جاء عيد الفصح فمن يدرى ... ؟

محتويات الكتاب

رقم المقالة	عنوانها	كاتبها	رقم الصفحة
	مقدمة الترجمة		١ - ط
	المصادر		١
١	في التجديد	فرنسيس بيكن	١
٢	حماقة	بن جنسن	٤
٣	الصلاة	جرى تيلر	٦
٤	متاعب الرجل الشريف		
	في المجتمع	أبرهام كولي	٨
٥	متطرب دجال	دانييل ديفو	١٥
٦	خواطر سائحة عن يد		
	مكنسة	جفانان سوفت	٢٣
٧	على فراش الموت	سير رتشرد استيل	٢٦
٨	جبل المصائب	چوزف أدسن	٣٠
٩	رؤيا مرزا	» »	٣٨
١٠	تجمد الألفاظ في نوقازمبلا	» »	٤٤
١١	حركات المزاوح	» »	٥٠
١٢	نادى القصار	ألكسندر پوپ	٥٥
١٣	مزايا السكنى في علمية البيت	صمويل جنسن	٦٠

رقم المقالة	عنوانها	كاتبها	رقم الصفحة
١٤	التعصب القوي	ألفر جولد سميث	٦٩
١٥	نادى المؤلفين	» » »	٧٤
١٦	أدب الحديث	وليم كوبر	٨٢
١٧	أصل الشواء	تشارلس لام	٨٧
١٨	أغلاط شائعة :	» »	٩٦
	١ — لا يفعل الجميل إلا		
	ذو الوجه الجميل		٩٦
	٢ — حسبك من غنى		
	شبع وري		٩٩
	٣ — ليس للرجل أن		
	يضحك من فكاهاته		١٠٠
١٩	حجرة المريض	وليم هازلت	١٠٢
٢٠	موت الأطفال	جيمس هنرى لى هنت	١١٢
٢١	غارة الجراثيم	هوبرت جورج ولز	١١٧
٢٢	سمو المقصد	» » »	١٢٥
٢٣	حلم صياد	جون جولد ورذى	١٣٣
٢٧	حفلة فى قرية	ألن ألكسندر ملن	١٦٦
٢٨	الزكام	رجنلد استيمورت هوپر	١٧٢

A 11

سلسلة الفكر الحديث

الكتب التي ظهرت

(١) دعائم السلام

(٢) فنون الأدب

(٣) الوسائل والغايات

(٤) في التربية

(٥) قناة السويس

تطلب كلها من لجنة التأليف والترجمة والنشر

٩ شارع الكرداسي . عابدين

تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

ومن جميع المكاتب الشهيرة

DEMCO

BOUND

JAN 18 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58889272

893.784 B14

Maqalat mukhtara min